أدب الشباب
JEUNESSE

جون موزي

من حكايا البحر الابيض المتوسط

منشورات الشهاب

جون موزي

من حكايا
البحر الأبيض المتوسط

ترجمة : أميرة غواطي

تحت إشراف السيدة إنعام بيوض

مديرة المعهد العالي العربي للترجمة

منشورات الشهاب

تمت ترجمة هذا الكتاب في إطار برنامج دعم النشر
بالمعهد الفرنسي بالجزائر.

INSTITUT
FRANÇAIS
ALGÉRIE

Titre original
25 contes de la Méditerranée par "Jean Muzi"

10، نهج إبراهيم غرافة، باب الواد، الجزائر.
الموقع الإلكتروني : www.chihabeducation.com
الهاتف : 97 54 53 021 / الفاكس : 91 51 97 021
ردمك : 978-9947-39-209-6
الإيداع القانوني : أفريل 2019

تمهيد

من خلال هذه الحكايات، أَعبُر بالقرّاء في رحلة عبر أرجاء البحر الأبيض المتوسّط، حكاياتٌ جاءتنا من المغرب العربي ومصر والمشرق وفينيقيا وتركيا وأوروبا. تبدأ الرحلة وتنتهي في مضيق جبل طارق. هناك حيث تمتزج مياه البحر المتوسط مع مياه المحيط الأطلنطي.

أنطلق بكم من مدينة طنجة التي تنتصب على تخومها مغارات هرقل حيث أوى هذا البطل، كما تقول الأساطير الإغريقية، ليرتاح بعد أن أتمّ مُهمّاته الإثني عشر. طنجة المُطلّة على أوروبا التي تتراءى لنا حين يكون الجو صحوًا. طنجة المُواجهة لمضيق جبل طارق ذي الصخرة التي تشكّل رفقة جبل أبيل (سبتة) أعمدة هرقل.

ثمّة أسطورة تقول أنّ نفقًا تحت المضيق كان يربط جبل طارق بالقارة الإفريقية على مسافة أربعة وعشرين كيلومترًا، وكانت القرود تعبر هذا النّفق ليستقرّ بها المقام على الصّخرة. ويمثّل أحفاد هؤلاء، في عصرنا الراهن، القِرَدَة

البرية الوحيدة التي تعيش في أوروبا. وتُضيف الأسطورة أن اليوم الذي سيشهد انقراض القِرَدَة في مضيق جبل طارق، سيكون آخر يوم لوجود البريطانيين فيه أيضًا. وقد حدث إبّان الحرب العالمية الثانية أنْ عرفت أعداد القردة هناك انخفاضًا حادًّا، ما جعل الإنجليز يجلبون بعضها من شمال إفريقيا لإعادة تعمير الصخرة.

في ترحالهم عبر حكايات هذا الكتاب، سيرسي القرّاء في عدد من الجزر، ويتنقّلون خلال السواحل المُشمسة للبحر الأبيض المتوسط حيث لا تزال الآثار شاهدةً على مرور حضارات مرموقة من هناك. وسيكتشفون بعضًا من الثروات التي تزخر بها القارات الثلاث التي تحيط بالبحر الأبيض المتوسط.

يبدو أنّ الحوض الأبيض المتوسّط، خلافًا للبحار الأخرى، هو أوّل بحرٍ تمّ الخوض فيه بعيدًا عن السواحل، هو البحر الذي ظهرت فيه الآلهة الإغريقية، والذي مَخرت عُبابه سفن أودسيوس واينيس الشّراعية، إنّه بحر هوميروس وفيرجل ومهد حضارتنا.

وأطلق الرومان على البحر الأبيض المتوسط تسمية « البحر الداخلي » Mare internum، كما أسموه « بحرنا » notre mer. لقد كان المحور الحيوي الذي تقوم عليه إمبراطوريتهم العظيمة.

وعلى السواحل الشرقية للأزرق الكبير، استقر الفينيقيون الذين كانوا أول من ابتكر الأبجدية. كلّ الشعوب القديمة كانت تقدّرهم وتعترف لهم بالقدرة الفريدة في ركوب البحر. كان الفينيقيون بحّارة عظماء وتجّارًا مهرة يتدبّرون أشغالهم في جو من الثقة. يروي هيرودوتس أنّ الفينيقيين، بعد أن يُلقوا بمراسيهم، كانوا يُنزلون بضائعهم ويعرضونها على الشاطئ، ثمّ يعودون إلى سفنهم ويشعلون نارًا فتنبعث الأدخنة. حينما يلمح أهالي المنطقة الدخان، يقتربون من البضائع ويقومون بمعاينتها، ثم يضعون إلى جانبها كمية من الذهب ثمنًا لها، وينصرفون. ويأتي الفينيقيون مجدّدًا ليتعرّفوا على مقدار العرض المقدم لهم. وإذا ما رأوا بأنّ الذهب يُعادل قيمة البضائع، يأخذونه ويمضون. أما إن رأوا العكس، يصعدون إلى سفنهم ثانيةً وينتظرون ؛ وهكذا، يرجع الأهالي ويُضيفون بعض الذهب. وفضلًا عن كونهم بحّارة عظماء وتجّارًا ماهرين، كان الفينيقيون مقاتلين بارعين أيضًا، وكانت « السفينة ثلاثية المجاذيف » أكثر سفنهم شهرةً، حتّى أنّ الكُتّاب في العصور القديمة سمّوها « ملكة البحر الأبيض المتوسط ».

يحوي نطاق الحوض المتوسط على المناظر الطبيعية ذاتها، كما تتشابه العوامل المناخية التي يتعرّض لها سكّان

تلك المناطق. خلال القرن الثاني عشر، كان البحر مُخيفًا في الموسم الشتوي، وهي فترةٌ كان البحارة يعزفون فيها عن الخوض في عرض البحر. فكان الناس يؤمّنون قوتهم بصعوبة، ويجدون ملاذهم في الكروم والقمح والزيتون. يقول الإدريسي، عالم الجغرافيا العربي الذي رسم في تلك الفترة خارطةً للبحر الأبيض المتوسط، أنّ البحر المتوسط يُبلّل السواحل الجنوبية للأندلس ويمتدّ إلى غاية أنطاكية، ووضّح أن عبوره من الغرب إلى الشرق يتطلب ستةً وثلاثين يومًا من الإبحار.

إن البحر الأبيض المتوسط بقعة رحبة يغمرها الضوء والشمس، شهد مشرقُه مولد كلّ أديان التوحيد، وعرف نطاقُه ثقافاتٍ يُميّزها الاختلاف والتقارب على حدّ سواء. والحكايات التقليدية التي جمعتها في هذا الكتاب تعكس ذلك. وقد اعتنيت بإعادة صياغتها وتطويعها عن طريق تشذيب النصوص وتبسيطها تسهيلًا لفهمها.

جون موزي

الأميرتان
(المغرب)



هل ما نراه في المنام بشارةٌ ستتحقّق،
كما تعتقد الأميرتانُ في هذه الحكاية؟

كان لأحد السّلاطين قصرٌ جميل أعمدته مصنوعة من الرّخام وجدرانه مزدانة بالزّليج[1]، وقد نُحتت على سقفه الجبسيّ خطوط كوفيّة تحيط بها نقوش زهريّة. وحول القصر، تمتدّ

1. فن عريق من بلاط فسيفسائي من أشكال فخارية هندسية مدقوقة قطعة بقطعة.

بساتين خضراء فسيحة يملأ أجواءها تغريد طيور مختلفة الأشكال تعيش حبيسة أقفاص القصر.

ما إن تمسك الطيور عن التّغريد حتّى ينطلق الخرير الرّتيب للمياه المتدفّقة من الينابيع المندفعة بفخر في حركة عموديّة، قبل أن تتساقط كزخّات مطر في الأحواض المصطفّة على طول الممرّات.

كانت تلك الحدائق الغنّاء محاطة بجدران أمغريّة اللّون تحميها من النّظرات الفضوليّة للمدينة المزدحمة، وتحجب عنها أشعة الشّمس الحارقة ؛ فصارت مصدر انتعاش بحقّ.

كان للسّلطان أخٌ جَازف بكلّ ماله في صفقات تجاريّة، وبعد أن فقد كل ثروته اضطرّ للعيش مع عائلته في بيت متواضع. وكانت لكل واحد من الأخوين ابنة تبلغ الثّمانية عشر ربيعًا. حرص السّلطان أن تترعرع الفتاتان معًا، فمنذ نعومة أظافرهما تلقّتا التّعليم ذاته على يد مربّية تقطن بالقصر. كانت ابنة الرّجل الفقير تدعى جميلة، وقد وهبتها الطّبيعة جمالًا أخّاذًا، على خلاف ليلى ابنة السّلطان الّتي كانت قبيحة جدًّا.

كانت الفتاتان على توافق تامّ، وكانتا تكنّان لمربّيتهما الكثير من الودّ، وتثقان بها كثيرًا فتطلبان منها النّصح وتبوحان لها بأسرارهما.

وفي صباح أحد الأيام، قالت جميلة لمربّيتها والابتسامة تعلو محيّاها :

— رأيتُ حلمًا غريبا اللّيلة الماضية. كنت أتأمّل البحر عبر المُشرّبيّة، وفجأة رأيت سفينة عظيمة تشقّ البحر الأبيض المتوسّط، تحوم فوقها طيور بيضاء ضخمة تردّد بصوت كأنّه صرير المعدن عبارةً طُرّزت كلماتُها بحروف من ذهب على الأشرعة الخضراء الكبيرة للسّفينة، أشرعة ترفرف في مهبّ الرّيح كأنّها رايات الفاتحين المسلمين :

في أرجاء البحر المتوسّط
أبحث عن ابنة أمير مفلس.

قالت المربّية باندهاش :

— يا له من حلم جميل !

أضافت جميلة :

— أظنّها رؤيا تبشّر بقدوم خطيب ثريّ، لعّله يكون أميرًا.

ردّت المربّية :

— ماعدا في الحكايا، لا تُبشّر الأحلام ولا تُنذر بشيء. وحلمك لا يَعدو عن كونه أمنية تتوقين إلى رؤيتها تتحقّق.

فقالت جميلة والخيبة بادية على وجهها :

— يجب أن لا أصدّق هذا الحلم إذن.

عندها قالت ليلى :

— أنا بلى. وإن كان صاحب السّفينة أميرًا فسيقصدني أنا دون سواي !

— الحلم يختار طريقه بنفسه. ردّت المربّية.

— في هذه الحال، بيعي لي حلمك يا جميلة.

أجابت جميلة :

— لكن يا ابنة العمّ، الأحلام لا تُباع.

انتاب ليلى غضب شديد فغادرت القاعة والدّموع تنهمر من مقلتيها. عندها انحنت المربّية إلى جميلة وهمست في أذنها :

— بما أنّ عائلتك مُحتاجة وابنة عمّك تريد هذا الحلم، اقبلي عرضها وبيعيها إيّاه. لن تجازفي بشيء فقَدَرُك مكتوب. بيعي الحلم واقبضي مقابله مبلغًا كبيرًا لمساعدة عائلتك.

اتّبعت جميلة نصائح المربّية وباعت الحلم لابنة عمّها.

مرّت أسابيع. وفي صباح أحد الأيّام، فيما كانت المربّية وتلميذتاها ينظرن إلى البحر من إحدى الشّرفات، رأين سفينة ضخمة تقترب من الشّاطئ.

صرخت جميلة من الدّهشة :

— ها هي ذي السّفينة الّتي رأيتها في حلمي !

— ما دمت قد بعتني إيّاه لم يعد حلمك. ردّت ليلى قبل أن تسرع إلى السّلطان لإعلامه بقدوم السّفينة.

راحت جميلة تلوم نفسها :

— وأنا الّتي بعت حلمي...

فقالت المربّية :

— هدّئي من روعك، هذه السّفينة ليست نفسها السّفينة الّتي رأيتها في حلمك.

— بلى إنّها هي !

— أمعني النّظر. لا شيء مكتوب على أشرعتها.

أدركت جميلة أنّ المربّية محقّة، فارتسمت على وجهها ابتسامة ارتياح.

رست السّفينة، ونزل منها شيخٌ ذو وقار، كان ملكًا على جزيرة كبيرة من جزر البحر المتوسّط. كان الحرّاس متحلّقين حوله وابنه واقفا بجانبه، لقد كان شابًّا بهيّ الطّلعة. توجّه الرّجُلان إلى القصر المَلَكيّ ليطلبا يد الأميرة، فاستقبلهما السّلطان استقبالًا يليق بمقامهما.

في اليوم الموالي، أقام السّلطان مأدبة فخمة، وكانت العادات تقضي بألّا تشارك الأميرة فيها. لكنّ الخاطب تمكّن من إقناع

الملك بأن تَجلب ليلى، عند انتهاء الغداء، الإبريق المستعمل لغسل الأيدي، وهكذا سيراها ولو للحظة.

وبما أنّ ليلى كانت قبيحة، اتّفق السّلطان مع ابنته أن تخرج جميلة بدلها. لكنّ جميلة انتهزت الفرصة وطلبت أن يعطوها مجوهرات ثمينة مقابل الخدمة. فكان لها ما طلبت. وعندما خرجت إلى الأمير وصبّت الماء على يَدَيْه افتتن بجمالها. فأهداها خلسة تفّاحة من ذهب أخفتها بين ثنايا ثوبها.

وفي مساء اليوم ذاته، خطب الأمير ابنة السّلطان رسميّا، فقبِل السّلطان. وبعد مرور بضعة أيّام أُقيم الزّفاف. لكنّ ليلى غطّت وجهها بوشاحٍ طوال الحفل، فلم تنزعه إلّا عندما انفرد الزّوجان ببعضهما في غرفة النّوم ؛ حينها أدرك الأمير أنّه خُدع، وقد وجد زوجته قبيحةً، قبيحةً جدّا لدرجة أنّه طلّقها على الفور، وحَبَسها في الغرفة، ثمّ سارع إلى أبيه ليخبره بما حصل. غادر الرّجلان القصر بسرعة، ومع بزوغ خيوط الفجر الأولى أقلعت السّفينة. لكن لم يخطر على بال أحد أن يُطلق صفّارة الإنذار.

لم يعلم السّلطان بما جرى إلّا بعد مرور ساعات، فانتابه غضب شديد وأراد أن يثأر لابنته. لكن ليلى تحلّت بالحكمة، وترجّت والدها أن يتخلّى عن فكرة الثّأر لما تعرّضا له من

إهانة، لأنّهما بدورهما أساءا إلى الأمير عندما أصرّا على خداعه. قالت له :

إنّ الأمير مغرم بابنة عمّي جميلة، وتصرّفه ذاك نابع ممّا يكنّه لها من مشاعر صادقة، لذا لا يجب أن نلومه على فعله. دعه يتزوّج من ابنة عمّي ولنعش في سلام.

اقتنع السّلطان بكلام ابنته. وبعد أن شاور أخاه، طلب من المربّية أن ترافق جميلة إلى الجزيرة الّتي يعيش فيها الأمير. وبعد مرور أسبوعين، انطلقتا على متن إحدى سفن الأسطول المَلَكيّ.

كانت مياه البحر المتوسّط هادئة، وكان السّفر ممتعًا.

عندما بلغتا الجزيرة قصدتا القصر، وطلبتا مقابلة الأمير، لكنّهما علمتا أنّه لم يعد يستقبل أحدًا لأنّه مريضٌ جدًّا ؛ فأخرجت جميلة من جيبها التّفّاحة الذّهبيّة الصّغيرة الّتي أهداها لها الأمير وأعطتها للحارس وطلبت منه أن يسلّمها للأمير في الحين. وما إن رأى الأمير التّفّاحة حتّى شفي، وأمر الحارس بالإسراع في إدخال المرأتين.

سمح الملك للأمير بالزّواج من جميلة في اليوم الموالي إن أراد. لكنّ الأمير فضّل انتظار قدوم أهل زوجته ليقيم عرسًا كبيرًا.

عاش الزّوجان في سعادة وهناء ورُزقا بعدّة أبناء. وقد تمكّن والد جميلة من تشييد قصر صغير بفضل كرم صهره وسخائه، فعاش فيه مع زوجته معزَّزَيْن مكرَّمَيْن. وبعد وفاة الملك، خلفه زوج جميلة على العرش. وقد عمل طوال فترة تولّيه الحكم على تعزيز العلاقات السّياسيّة والتّجاريّة والثّقافيّة بين مملكته والمملكة مسقط رأس زوجته.

جحا و البحر

(الجزائر)



الجميل والحلو قلّما يجتمعان.

كان جحا يعيش في قرية صغيرة من قرى بلاد القبائل، ولم يسبق له قَطّ أن رأى البحر. لكنّ جاره سعيد كثيرًا ما كان يحدّثه عنه، فقد سبق له أن سافر بحرًا، منذ سنوات، قاصدًا مكّة المكرّمة للحجّ. ومنذ أن زار الشّيخ سعيد البقاع المقدّسة صار الجميع يناديه بالحاجّ.

وككلّ مسلم تقيّ، كان جحا عازمًا على الذّهاب، يومًا ما، إلى مكّة المكرّمة وإلى المدينة المنوّرة، بل وحتّى إلى القدس الشّريف. لكنّه لم يكن يملك المال الكافي. فقد وُلد فقيرًا وعاش فقيرًا أيضًا، تلك كانت مشيئة اللّه.

فكّر جُحا في الأمر وقرّر أن يسافر على ظهر حماره. وحين أخبر جاره سعيدًا بقراره نصحه هذا الأخير بألّا يُغامر. لكنّ جحا أبى أن يتخلّى عن قراره، مع أنّه كان يعرف أنّ السّفر سيكون صعبًا، خاصّة على ظهر حيوان كحماره المسنّ الّذي يعاني سوء التّغذية. ولكي يبلغ مكّة المكرّمة على ظهر حمار، لا بدّ له أن يسير على امتداد البحر المتوسّط، فيقطع مسافة كبيرة من الجزائر إلى تونس، ثمّ يعبر ليبيا ومصر وخليج العقبة قبل أن يحطّ الرّحال في الأراضي السّعودية، ليواصل بعدها طريقه جنوبًا على امتداد البحر الأحمر. سيكون سفرًا طويلا شبيهًا بسفر الحُجّاج في القديم على ظهور الجِمال عبر قوافل تقطع الصّحاري. كان ذلك السّفر شاقًّا يهلك خلاله الكثير من الحجّاج قبل أن تطأ أقدامهم أرض مكّة المكرّمة، فعبور الصّحاري الرّمليّة والحصويّة تجعلهم عرضة للمرض والعطش وأشعّة الشّمس اللّافحة.

وقد كان السّفر حينذاك محفوفًا بالمخاطر أيضًا بسبب قُطّاع الطّرق من البدو الّذين يتعرّضون للحجّاج ويسلبونهم مُؤنهم لتأمين الحاجات الضّرورية الّتي يعوزونها.

وريثما يصير جحا قادرًا على القيام برحلة العمر، قرّر الذّهاب إلى البحر. وبالفعل ركب حماره وسار أيّامًا عديدة إلى أن بلغ الشّاطئ. كانت الأمواج، المتلاطمة على الصّخور الشّاطئية زرقاء داكنة يعلوها زبدٌ ناصع البياض. راح جحا، ولأوّل مرّة في حياته، يتأمّل المنظر. وبقي مطوّلًا على تلك الحال قبل أن يتجرّأ على الاقتراب من الأمواج المتدافعة. انبهر جحا من شساعة البحر ووجده جميلا للغاية.

ترجّل أخيرًا من على ظهر حماره الّذي راح ينهق عند رؤية صاحبه يقترب من البحر. لكنّ جحا لم يبتعد كثيرًا، بل توقّف حالما وصل الماء إلى ركبتيه. انحنى واغترف منه قليلًا ليتذوّقه. لكنّ طعم الماء المالح جعله يَمُجّه في الحين.

تنهّد قائلًا : « ليس كلّ ما هو جميلٌ حلوَ المذاق بالضّرورة ».

في البحر الأبيض المتوسّط

(تونس)



يقال بأنّ الأسماك الّتي تعيش في مياه البحر الأبيض المتوسّط تختلف عن غيرها في البحار الأخرى.

يروى أنّ رجلا جمع ثروة طائلة من تجارته للبضائع الّتي كان يجلبها من جميع أنحاء العالم ليبيعها على أبواب بلدان البحر المتوسّط.

وفي أحد الأيّام، عندما كان مقيمًا في بلاد بعيدة، اكتشف بضاعة لم يسبق له أن رآها قَطّ. قال في نفسه : « لو أنّ الجميع يملك هذه البضاعة، حتى ولو قليلًا منها، لصارت

الحياة أكثر متعة ». فاقتنى منها كمّيّات كبيرة وعبّأها في حاويات مركبه الشّراعيّ، ثمّ سلك طريق العودة.

كان المركب يسير شمالًا بمحاذاة السّواحل الإفريقيّة، تدفعه رياحٌ مواتية، وبعد أن عبر المحيط الأطلسيّ دخل في مضيق جبل طارق ليصل أخيرًا إلى منطقة البحر المتوسّط، أو « بحر الرّومان » حيث تجتمع ضفاف ثلاث قارّات. شعر التّاجر بالفرحة تغمره وراح يفكّر في الأماكن العديدة الّتي سيبيع فيها حمولته، وكذا في الأرباح الطّائلة الّتي سيجنيها : « حتمًا سيتهافت النّاس على بضاعتي ! ».

رسا المركب في مرحلة أولى في مرفإ بشمال إفريقيا. وسرعان ما ذاع بين الناس خبر وصول مركب يحمل حاويات من الحكمة. لكن لم يتقدّم أيّ زبون لشراءٍ البضاعة. فقد راح الكلّ يفكّر : « الحكمة لا تعوزنا... نملك منها الكثير ! ». استاء التّاجر كثيرًا وقرّر أن يمضي إلى أماكن أبعد. أخذ المركب ينتقل من مرفإ إلى آخر، لكن لا أحد تقدّم لشراء البضاعة، أيًا كانت البلاد ومهما كان الثّمن المطلوب حتّى وإن كان بخسًا.

وأخيرًا طاف التّاجر حول البحر الأبيض المتوسّط برمّته، لكنّ الحاويات ظلّت ملأى بالبضاعة الّتي لم ينقص منها شيء. قال التّاجر في نفسه : « من الأفضل أن أتخلّص من

البضاعة »، وأمر البحّارة برميها في البحر ؛ وعندها ذاقت الأسماك البضاعة فاستساغتها.

طبعا لا داعي أن نذكر بأنّ التّاجر قد خسر مالًا كثيرًا في هذه الصّفقة، لكن مُذّاك يُقال إنّ أسماك البحر المتوسّط أضحت تمتاز بالحكمة خلافًا لأسماك البحار الأخرى.

الصّيّاد والعملاق

(مالطا)



لا خير في حُسنِ الجُسُوم وطولها
إذا لم يَزِنْ طولَ الجسومِ عُقُولُ.

كلّ صباح، كان أحد الصّيّادين يخرج بقاربه ليسحب شباكه الّتي ألقاها في البحر. في ذلك اليوم، كانَ صيده وفيرًا، فوجد القارب المُثقل بالأسماك صعوبة في السّير. جلس الصّيّاد وظهره للشّاطئ يُجذّف باذلًا مجهودًا هائلًا للعودة

إلى مسكنه. كان يعاني الأمرّين، ولكنه كان سعيدًا ؛ فبعد حين سيقوم ببيع ثمرة صيده في السّوق، ويجني مالًا كثيرًا.

لمّا بلغ المركب الشاطئ، قفز الصّيّاد على الحصى، وإذا به يلمح قدمين عملاقتين حافيتين تنتهيان بأصابع ضخمة. انتفضت فرائصه، ثم رفع رأسه فتراءى أمامه عملاقٌ كان يتفرّس فيه بنظرات حادّة، وبادره قائلًا :

— أيّها الرّجل الصّغير، من سمح لك أن تغترف من مخزن طعامي ؟

— لا أفهم عمّا تتحدّث.

— أتحدّث عن البحر !

— ولكنّ البحر ملكٌ للجميع...

— عُد إلى رشدك، البحر الأبيض المتوسّط ملكي أنا، والأسماك الّتي اصطدتها منه أسماكي.

— قضيت حياتي كلّها وأنا أصطاد هنا، وكذلك فعل أبي وجَدّي.

قال العملاق آمراً :

— اخرس، وإلّا جعلتك لقمة سائغة في فمي.

قال الصّيّاد مغمغمًا :

— حاضر.

— بما أنّني طيّب القلب، فسأمنحك فرصة ثانية. أرى أن نتصارع، وإذا أبنت عن قوّةٍ أشدّ من قوّتي، فسأُبقي على حياتك. وإن حدث العكس فستكون نهايتك.

قال الصّيّاد في محاولة لتفادي الصّدام مع العملاق :

— الكلاب المتشرّدة وحدها من تتعارك. وعوضًا عن ذلك، لِنرَ ما في وسع كلٍّ منّا أن يفعل.

إنّ فكرتك تروق لي، وسأبدأ أنا.

انحنى العملاق والتقط حصاةً، ثم ضغط عليها بقبضة يده فأحالها غبارًا. ثمّ تصنّع الصّيّاد أنّه يلتقط حصاةً أخرى، ولكنّه استخرج من حقيبته خلسة قطعة جبن صغيرة، ثمّ سحقها في يده، فسال الحليب منها ؛ ما أثار ذهول العملاق الّذي اقتنع بأنّ الصياد قد عصر حصاةً. فكّر العملاق في سرّه : « هذا الرجل الصغير أشدّ قوّةً منّي » ثم قال :

— إنه دورك لتقترح مباراة جديدة.

التقط الصّيّاد حصاة ملساء، وسار بضع خطوات في مياه البحر الّذي كان في أوجّ هدوئه، ثمّ مال بجسده إلى جنبه، وبحركة قويّة، قذف الحصاة على سطح البحر. ارتدّت القذيفة على صفحة الماء عشر نطّاتٍ ثم اختفت. أراد العملاق تقليد خصمه. فأخذ أوّل حصاة صادفها عند قدميه. كانت حصاةً

كبيرة ومستديرة وثقيلة. رمى العملاق الحصاة، فلم تلامس الماء إلا مرّة واحدة قبل أن تهوي في عمقه ؛ فقال العملاق في قرارة نفسه : « هذا الرّجل الصّغير أقوى منّي بكثير ! ». كانت بعض الصّخور المُحيطة بشاطئ الحصى تمتدّ إلى داخل الماء مُشكّلةً خليجًا. أمسك العملاق بإحداها واجتثّها دون عناء. ثمّ قال :

— إنّه دورك لتبلي البلاء الحسن مثلي.

كان الصّيّاد على علم بأنه ليس في مقدوره مجابهة العملاق في مثل هذه المباراة، ولكنّه أخذ حبلًا طويلًا من المركب، ولفّه حول أكبر صخرة من الصّخور، ثمّ أوثق طرف الحبل بالقارب. كان يريد بفعله ذاك إثارة دهشة العملاق، والتمكّن ربّما من الهرب عبر البحر. قال الصّيّاد وهو يدفع القارب في الماء :

— سأجذّف ساحبًا الحبل. وسيكون اقتلاع هذه الصخور سهلًا جدًا.

عندها قال العملاق راجيًا :

— توقّف أرجوك، فباقتلاعك هذه الصخور، ستُحطّم هذا الخليج الّذي يأويني حين تهيج العاصفة. ماذا سيحلّ بي دون هذا المأوى ؟

فردّ الصياد الّذي لم يبرز في الواقع عن قوّته :

— إذن، أنت تعترف أنّني أقوى منك.

— أقوى منّي بقليل.

هكذا قال العملاق مزمجرًا حتّى لا تضيع هيبته. ووقتئذ بات في إمكان الصّيّاد الرّجوع إلى بيته حاملًا أسماكه، ومن يومها، لم يُغامر في العودة إلى ذلك الخليج أبدًا.

الصّيّاد والقرد

(ليبيا)



يقال إنّ البحر الأبيض المتوسّط يزخر بكنوز وفيرة. ويحدث، أحيانا، أن تجود مياهه الزّرقاء على الصّيّادين بواحد من تلك الكنوز.

يُحكى أنّ صيّادًا بسيطًا كان يعيش في كوخٍ من قصب، بناه على طرف قرية صغيرة قابعة على ضفاف البحر المتوسّط. كان الصّيّاد يحمل صنّارته كلّ صباح، ويذهب إلى البحر ليصطاد، ولم يكن يرجع سوى بسمكة أو سمكتين يبيعهما في السّوق ويشتري ما يقتات به.

في يوم من الأيام، بينما كان يصطاد، أحسّ بشيء ما يشدّ خيط صنّارته فسحبها بقوّة ليرى ما علق بها، ولكم كان سعيدًا عندما وجد صعوبة في سحبها، ولكنّ خيبة أمله كانت كبيرة عندما أخرج صندوقا خشبيّا بدل السّمك. حمل الصّيّاد الصّندوق وعاد إلى البيت، وراح يقول وهو يسرع الخطى : « ومن يدري، لربما خبّأ لي الصّندوق كنزا ثمينا ».

فتح الصّيّاد الصّندوق بمجرّد أن وصل إلى كوخه، وتفاجأ لمّا رأى قردًا قصير القامة عوضًا عن الذّهب والأحجار الكريمة. لم يكن ذاك القرد كغيره من القردة، فعلاوة على قدراته المتعدّدة، كان يتكلّم كالبشر وقال للصّيّاد :

— شكرا لك لأنّك انتشلتني من أعماق البحار.

أمسك الصياد بعنق الحيوان وردّ عليه قائلا :

— بما أنني لم أصطد اليوم ولو سمكة واحدة، فسأبيعك في السوق لأكسب بعض الدّنانير. فقال الحيوان ناصحا :

— لا تتسرّع.

— ألديك حلّ آخر تقترحه عليّ ؟

فأجابه الحيوان :

— أجل.

— أنا في الاستماع إذن.

— الأمر في غاية البساطة، خذ قصبة متوسّطة القطر وقطّعها إلى حلقات.

— وماذا سأفعل بها ؟

— تدفع بها ثمن مشترياتك.

— أتسخر مني أيها اللّعين ؟

— ثق بي وجرّب ما نصحتك به.

— حسنًا، سنرى.

خرج الصّيّاد من الكوخ فوجد على مقربة منه بقايا قطع القصب الّتي استعملها في إصلاحه، فما كان منه إلّا أن اختار قطعة جافّة، واستلّ سكّينا حادّة من جيبه، سكّينٌ لا تفارقه أبدًا ورثها عن أبيه، قطع بها حوالي عشرين حلقة ووضعها في جيبه. وحينها قال له القرد :

— لم يبق سوى أن تذهب للسّوق، وستجدني في انتظارك هنا عندما تعود.

ذهب الصّيّاد إلى القرية، وأمام المخبزة، انتابه شيء من التّردّد وراح يحدّث نفسه : « ماذا لو كان القرد مجرّد محتال، سأصير أضحوكة للجميع ». في تلك الأثناء دغدغت رائحة الخبز الطّازج أنف الصّيّاد ولم يستطع مقاومتها، فدخل

المخبزة وطلب رغيفين كبيرين، ثمّ وضع يده في جيبه فأحسّ أنّه مثقل بالقطع النّقديّة.

فرح الصّيّاد أيّما فرحة، لأنه تأكّد أنّ القرد لم يكن كاذبًا، فدفع إذّاك ثمن الرّغيفين، وخرج متّجها دون تردّد نحو الجزّار، فاشترى ثلاث قطع كبيرة من اللّحم، ثمّ توجّه نحو البقّال واقتنى شيئًا من الفول السّودانيّ وبعضًا من المكسّرات ليقدّمها للقرد شكرًا له.

عاد الصّيّاد إلى كوخه، وفي المساء دعا أصدقاءه لمشاركته طعام العشاء، فشوى اللّحم على نار الحطب. وأثناء العشاء، لزم القرد الصّمت تنفيذًا لأوامر الصّيّاد، غير أنّه لم يتوقّف عن تسليتهم بحركاته الخفيفة المضحكة. خمدت النّار بعد العشاء، فتسامر الصّيّاد وأصدقاؤه تحت ضوء القمر الشّاحب، واستمتعوا بجوّ اللّيل النّديّ وبحكايا السّندباد البحريّ. ولمّا تفرّقوا كان القرد يغطّ في نوم عميق.

لم ينم الصّيّاد إلا بضع ساعات، واستيقظ فجرًا كما تعوّد أن يفعل، وفيما كان القرد لا يزال نائمًا، اقترب منه وهزّه ليوقظه قائلًا :

— انهض، سأصطحبك معي إلى الصّيد لعلّي أصطاد قِرْدَةً جميلة تؤنسك.

تناول الصّياد فطور الصّباح ثمّ حمل الصّنارة والطُّعم. ولمّا همّ بالخروج، اكتشف عند عتبة كوخه أكياسًا من الحبوب، ورُزَمًا مليئة بمختلف البضائع، وكبشًا رُبط إلى جذع نخلة لم يكن يتسلّقها سوى مرّة في العام لكي يجني التّمر اللّذيذ الّذي رزقه الله سبحانه وتعالى إيّاه. بعد أن استفاق الصّيّاد من دهشته راح يكلّم نفسه : « سأنحر هذا الكبش في عيد الأضحى ولن أشتري واحدًا آخر »، وبينما كان كذلك خاطبه القرد قائلا :

— لا داعي للذّهاب إلى الصّيد اليوم. اذهب إلى السّوق واشترِ بعض الجِرار واجلبها إلى هنا.

توجّه الصّيّاد إلى السّوق، واختار حمارًا قويًّا وراح يتفاوض على ثمنه. كان على يقين أنه يضيّع وقته فجيبه مليء بالنّقود على رغم نفقات ليلة البارحة.

ساوم الصّيّاد على ثمن الحمار كما اعتاد أن يفعل وكما يفعل غيره من النّاس، وعلاوة على ذلك كان يريد أن يتسلّى، كما لم يرد إعطاء التّاجر فرصة الاحتيال عليه. اشترى بعد ذلك عربة ملأها بعض الفتيان الجائعين بجرارٍ من الطّين الأمغر. بعدها، عاد إلى كوخه وهناك سأل القرد :

— قل لي الآن ماذا سأفعل بكلّ هذه الجرار ؟ فردّ عليه القرد :

— ضعها في مكان آمن.

— ما الدّاعي إلى ذلك مادامت فارغة ؟

— ستعرف لاحقًا.

شرع الصّيّاد في تفريغ حمولة العربة، وما إن حمل الجرّة الأولى حتّى بدت علامات الدّهشة على وجهه، فقد وجدها ثقيلة جدّا على عكس ما كان يتوقّع، الأمر الّذي دفعه إلى فتحها ليعرف ما بداخلها، ولكم كانت دهشته كبيرة عندما رأى القطع الذّهبيّة الّتي تملؤها، فراح بحماسة يفتح الجرار الأخرى الّتي كانت تحمل ذهبًا أيضًا.

لم يصدّق الصّيّاد أنّه صار من الأثرياء إلّا بعد مرور شهر بأكمله، فبنى بيتا جميلا بالقرب من كوخه ليعيش فيه مع قرده، ولم يعد يذهب إلى الصّيد سوى مرة في الأسبوع. ومع مرور الوقت، صارت حياة التّرف الّتي يعيشها رتيبة مملّة أثقلت كاهله، فقرّر السّفر، وقبل أن يشدّ الرّحال استخدم حارسًا تركه في كوخه الّذي أراد الاحتفاظ به كذكرى عن أيّامه الخالية.

بعد بضعة أسابيع، كان الصّيّاد قد ابتعد. وعلى ظهر حماره، راح يسير على طول ضفاف البحر المتوسّط الّذي يدين له بالكثير والّذي ما فتئ جمال شواطئه يسحره.

اصطحب الصّيّاد قرده الّذي لم يكن يتذمّر من الحرارة أبدًا، حتّى عندما تبلغ أوجّها فتجفّف الأنوف والأفواه والرّئات. ذات ظهيرة وصلا إلى عاصمة مملكة مترامية الأطراف يحكمها ملك ظالم يقطع رأس كلّ من يتقدّم لطلب يد ابنته الحسناء.

أراد الصّيّاد أن يعرف السّبب فراح يسأل كل من مرّ أمامه دون جدوى، إذ لم يجبه أحد، فاقترح عليه القرد أن يحصل على الجواب في قصر الملك ثم قال له :

— ولِمَ لا تطلب يد الأميرة ؟

— إنّك تريد هلاكي لا محالة.

— لا تخف، لن تلقى مصير من سبقك من الخُطّاب، سأكون إلى جانبك.

تردّد الصياد قليلًا، وبعد أن فكّر مليًّا قرّر الذّهاب إلى القصر فلا داعي للقلق مع كلّ تلك القدرات الّتي يتمتّع بها قرده.

— سأتقدّم لخطبة الأميرة بعد أيّام قلائل.

— أيّام قلائل ؟ ولِمَ التّأجيل ؟

— عليّ أن أقتني ثيابًا تليق بخاطب ثريّ.

اشترى الصّيّاد قطعة قماش فاخرة وقصد خيّاطًا بارعًا دلّته عليه صاحبة الخان الّذي نزل به، وإن هو إلّا زمن قصير حتّى صار له ثوب أنيق، وكأنّه ثوب أمير.

علم الصّيّاد أنّ الملك يستقبل رعاياه صباحًا، فأخفى قرده تحت ردائه كما طلب منه واتّجه إلى القصر، وهناك قال للملك :

— جلالة الملك، أنا رجل غريب عن بلدكم، ثروتي لا تضاهيها ثروة، والجميع يحترمونني، وقد جئت من بعيد لخطبة ابنتك بعد أن سمعت عن جمالها الأخّاذ. فهل توافق على تزويجي إيّاها ؟ فقال الملك :

— بالطّبع. سأطلب منها أن توافيك حالا، وإذا تمكّنت من جعلها تتكلّم قبل حلول اللّيل فستصير زوجةً لك، وإلا كان مصيرك الموت كسابقيك.

خرج الملك. وبعد هنيهة، وصلت الأميرة وجلست أمام الصّيّاد الّذي انبهر بجمالها الفتّان، وراح يتساءل قائلا : « ما أنا فاعل الآن يا تُرى ؟ ».

مضت السّاعة تلو السّاعة والصّيّاد يبحث عن حيلة تمكّنه من إنطاق الحسناء، وها قد اقترب منتصف النّهار دون أن تخطر بباله أيّة فكرة، فبدأ القلق يساوره والخوف يتملّكه. وفي المساء، تأكّد أنّ أجله قد اقترب وأنّه يعيش آخر ساعات حياته. وبينما كان مبتئسًا ماسكًا رأسه بين يديه تدخّل القرد وأمسك بردائه ليمنعه من رفع رأسه وشرع في محادثة

الأميرة. لم يكن فم الصيّاد ظاهرًا، ولم تشكّ الأميرة للحظة أنه لم يكن هو المتكلّم.

— أميرتي الجميلة، أصغي جيّدا لما سأرويه لك. يُحكى أن رجلًا نحت جسد امرأة شابّة على جذع شجرة، كان النّحت متقنًا لدرجة أنّ النّاظر يعتقد بأنّ المرأة حيّة ترزق. وفي يوم من الأيام مرّ تاجر غنيّ بالمكان، فأهدى المرأة فستانًا فاخرًا ليغطّي جسدها، وجاء آخر ومنحها أبهى الحليّ والمجوهرات وزيّن وجهها، وفي الأخير نفخ إله الحياة فيها. دبّ النّشاط في المرأة شيئًا فشيئًا، فخطت بضع خطوات نحو المرآة، تأمّلت وجهها مُبتسمة ثمّ خرجت من ورشة النّحات، وابتعدت لتختفي في زحمة السّوق. مِن بين أولئك الرّجال، مَن يستطيع أن يزعم أنّه صاحب الفضل على التّمثال ؟ أنا أرى أنّه النّحّات، فما رأيك يا أميرتي ؟

— آخرهم بلا شكّ. فهو من بثّ فيها الحياة.

— يا إلهي أنا لا أصدّق، لقد نطقت، أجل لقد تكلّمت الأميرة.

— بلى، يمكنك أن تصدّق لقد تكلّمتُ حقًّا وسأكون زوجةً لك.

عمّت الأفراح واللّيالي الملاح بمناسبة زواج الأميرة والصّيّاد الّذي لم ينتبه إلى شكر القرد إلّا بعد انتهاء الاحتفالات، وحينها قال الحيوان بنبرة ساخرة : من أجدر بالزّواج من ابنة الملك يا ترى ؟

رحلة أونامون

(مصر القديمة)



جاء هذا النّصّ في مخطوطة كُتبت على ورق برديّ وهي محفوظة في موسكو، وتعود إلى السّلالة الحاكمة الثّانية والعشرين، (حوالي العام 900 قبل الميلاد).

في اليوم السّادس عشر من الشّهر الثّاني لموسم حصاد العام الخامس، كان الكاهن الأعظم أونامون على وشك مغادرة بلاط الملك آمون الّذي أوكل إليه مهمّة جلب الخشب اللّازم لصناعة القارب المقدّس الجديد، المسمّى « أوسيرهات آمون ». قارب عظيم يبلغ طوله ثمانية وستّين مترا، يعبر على متنه الفرعون النّيل خلال حفلة « أوبي » السّنويّة.

لم يكن قارب آمون المقدّس يُصنع من أشجار مدينة « طيبة » ولا من أشجار مناطق مصر الأخرى على الرّغم من جودتها، وحدها أشجار الأرْز اللّبنانيّة الرّائعة كانت تُستعمَل لذلك الغرض، ولهذا توجّب على أونامون الذّهاب إلى لبنان على الرّغم من علاقاته المتوتّرة مع مصر.

أبحر أونامون من طيبة، بعد أن أعطاه الفرعون تمثال إله برأس جَدْيٍ يلازمه طيلة سفره ليكون رسولًا ذا هيبة ووقار. عبر أونامون النّيل، وراح يتمتّع بجمال الطّبيعة إلى أن وصل دون عناء إلى صعيد مصر، فقد كانت الرّياح مواتية والحرارة معتدلة، لكن ما إن بلغ الدّلتا حيث تلتقي مياه النّيل بمياه البحر، حتّى أدرك أن مواصلة الإبحار على متن قارب صغير مستحيلة. إنّ الإبحار في المتوسّط والتوجّه إلى شواطئ فينيقيا ولبنان يستلزم سفينة أكبر وأمتن.

توقّف أونامون بمدينة « تانيس » ولم يجد السّفينة المناسبة إلا بعد حلول شهر الحصاد الرّابع، وحينها نقل على متن السّفينة التّمثال والصّناديق المليئة بالذّهب والهدايا الّتي كان سيقدّمها نظيرَ حصوله على خشب الأرْز.

كانت السّفينة تحت إمرة الرّبّان « مونغابو » الّذي خرق عباب بحر « خارو » في الفاتح من أوّل أشهر الفيضان.

هبّت الرّياح الباردة ونفخت في أشرعة السّفينة الّتي راحت تشقّ الأمواج العالية وتنساب بسرعة خارقة إلى أن بلغت ميناء « دور »، ورست به وقد غربت الشّمس تاركة وراءها نورها الورديّ. وما إن أنهى البحارة ما عليهم فعله حتى قفزوا إلى اليابسة وراحوا ليستريحوا في حانات البلدة، غير أنّ واحدا منهم فرّ بعد أن سرق من مقصورة أونامون مزهريّة ذهبيّة وأربع مزهريّات فضّيّة وصرّة كبيرة مليئة بالقطع النّقديّة، فما كان من أونامون إلّا أن قصد في اليوم الموالي « باديل » أمير دور ليشكو ما حلّ به فقال له :

— أنت أمير هذه البلاد، وقد سُرقت بمينائك، ولهذا عليك أن تعوضّني.

— لو كان من سرقك من رعاياي لعوضتك إلى أن نقبض عليه، لكن ذلك غير صحيح، فالسّارق واحد من رجالك وقد كان على متن سفينتك.

حاول أونامون جاهدًا إقناع الأمير بضرورة أن يضمن العدل والنّظام في بلاده، لكنّه لم يجد منه آذانًا صاغية، فغادر « دور » وقصد مدينة « صور » ومنها توجّه إلى بيبلوس، وهناك أقام مع رفاقه في خيام فاخرة نصبوها بمحاذاة البحر، لكن سرعان ما أبلغه رئيس الميناء أنّ الأمير يطلب منه مغادرة المدينة. وكان ردّ أونامون أنّه لا يستطيع العودة

إلى مصر دون سفينة. وهكذا قضى تسعة وعشرين يومًا في بيبلوس، لم يمرّ أيّ يوم منها دون أن يكرّر رئيس الميناء طلب المغادرة.

وفي صباح اليوم الثّلاثين، عثر أونامون أخيرا على سفينة متوجّهة إلى مصر ؛ فحمل عليها التّمثال الإلهيّ وكلّ الثّروات الّتي جاء بها، وراح ينتظر موعد الانطلاق المحدّد بظهيرة ذلك اليوم.

غير أنّ الإله كان قد تجلّى في اللّيلة السّابقة لأمير بيبلوس، بينما كان يقدّم القرابين، وأمره باستقبال رسول آمون. وهذا ما جعله يرسل رئيس الميناء في منتصف النّهار ليقول لأونامون :

— الأمير يأمرك بتأجيل سفرك إلى الغد.

في صباح اليوم التّالي، استُقبل أونامون في القصر، وما إن وطأت قدماه قاعة الاستقبال الواسعة حتّى بدت علامات الانبهار على محيّاه. كان الأمير متربّعًا على العرش وخلفه شرفة تسمح بتأمّل زرقة بحر خارو الكبير.

— آمون يباركك يا مولاي الأمير.

— متى تركت طيبة ؟

— منذ خمسة أشهر.

— وما مهمّتك ؟

— جئت لجلب الخشب اللّازم لبناء قارب آمون المقدّس، وعليك أن تتصرّف كما تصرّف أبوك وجدّك قبله.

— وماذا لديك كمقابل ؟ إذ لم يحدث أن ساهم أسلافي في إنجاز هذه المهمّة دون مقابل.

على الفور أمر الأمير بإحضار سجلّ أسلافه وأطلع أونامون على ما قُيّد به، واشترط عليه تقديم هدايا تفوق قيمتها ما كان بحوزة أونامون، فاضطرّ إلى أن يطلب المدد من « طيبة »، وإحضار أربع مزهريّات زاب ذهبية، ومزهريّة كاك ذهبية، وخمس مزهريّات زاب فضّيّة، وعشر بدلات ملكية، وعشر قطع من القماش النّاعم ذي الجودة العالية، وخمسمائة سجّادة من القماش الأملس، وخمسمائة قطعة من جلود البقر، وخمسمائة حبل، وعشرين كيسًا من العدس وثلاثين سلّة من السّمك.

وصلت الهدايا في الفاتح من شهر الإنبات. وسلّمها أونامون لأمير جبيل الّذي سُرّ بها كثيرا. وجهّز ثلاثمائة رجل وثلاثمائة ثور لقطع أشجار الأرْز.

قُطعت الأشجار وتُركت في مكانها طيلة موسم الإنبات، وفي الشّهر الثّالث من موسم الحصاد، جرّتها الثّيران إلى غاية الشّاطئ.

أخيرا تمكّن أونامون من تحميل السّفينة بخشب الأرْز الّذي يشتهر به لبنان، وعاد إلى مصر، وهناك كان الجميع ينتظر بشغف وصول الخشب. وما إن رست السّفينة حتّى شرع العمّال والحرفيّون والصبّاغون المكلّفون ببناء مركب آمون المقدّس وتزيينه في العمل. وحصل أونامون على تشريفات عدّة وأُجزل عليه العطاء لنجاحه في تنفيذ تلك المهمّة الصّعبة.

التّوأمان

(مصر)



تروي هذه الحكاية قصّة توأمين أُلقيا في البحر، وهو موضوع لطالما نسجت حوله الحكايات والرّوايات، منها الحقيقيّة كقصّة النّبيّ موسى عليه السّلام الّذي ألقته أمّه في اليمّ خوفا عليه من فرعون، ومنها الخياليّة كأسطورة حورس ابن إيزيس الّذي سافر في صندوق من دلتا النّيل إلى مدينة بيبلوس.

يُحكى أنّ ملكًا تولّى الحُكم في العشرين من العمر، لم تَترك له شؤون الحكم الوقت للّهو والتّرف ولا حتّى للتّفكير في

الزّواج. بلغ الملك الثّلاثين من العمر وأقيمت الاحتفالات بمناسبة عيد ميلاده، وحينها فقط أخذ يفكّر مليًّا في وضعه وأدرك أنّ الوقت قد حان لكي يتزوّج. أعلن الملك قراره أمام حاشيته ووزرائه، وأعلمهم أنّه ينبغي على الفتيات، اللّائي يترشّحن ليختار من بينهنّ زوجة له، أن يتمتّعن بميزة ثالثة، علاوة على الجمال والذّكاء، يُفصحن عنها عندما يلتقين الملك.

بلغ الخبر أسماع ثلاث أخوات جميلات وطموحات ينتمين إلى إحدى أغنى العائلات في المملكة، فقرّرن التقدّم للمسابقة.

مثلت كبرى الأخوات أمام الملك وحدّثته متفاخرة عن براعتها في الطّبخ قائلة :

— بوسعي أن أُطعم حرس القصر جميعهم بكيس من الدقيق وكيس من الملح.

على إثر ما سمع، أحضر الملك كيسًا من الدّقيق وكيسًا من الملح، أفرغتهما الفتاة في إناء به ماء ومزجتهما، ثمّ شكّلت بالعجين أرغفة خبز، طهتها في الفرن. كان الخبز مالحا إلى درجة أنّ الجنود لم يقدروا على أكله. استُبعدت الفتاة من المسابقة وعوقبت بالعمل كخادمة في المطابخ لتنمية مهاراتها في الطّبخ.

مثلت الأخت الثّانية أمام الملك وهي على يقين بأنها ستفوز بقلبه عكس شقيقتها الكبرى فقالت :

— إنّ براعتي في الخياطة يا مولاي الملك لا توصَف.

سمع الملك ما جاءت به الفتاة باهتمام ثمّ أحضر قطعة من القماش وطلب منها أن تخيط بدلات لحرسه.

أُعلمت الفتاة بعدد الجنود الّذين ستخيط لهم البدلات، وبعد أن قاست قطعة القماش وجدت بأنّها غير كافية. كان بوسعها أن تُظهر براعتها في الخياطة لو أنّها خاطت بعض البدلات، غير أنّها فضلت أن تقسم قطعة القماش بالعدل بين الجنود فكانت النّتيجة مربّعات بحجم المناديل ربطتها حول إبهام كلّ واحد من الجنود كما تربط الضمّادات. استشاط الملك غضبا، وعقابًا لها شغّلها في غسل الملابس لتعرف جزاء من يسخر منه.

كانت الأخت الصّغرى أجمل الأخوات الثّلاثة. وما إن رآها الملك حتّى افتتن بحُسنها وراح يبادلها النّظرات والابتسامات دون أن ينبسا ببنت شفة، إلى أن قالت الفتاة بصراحة تامّة :

— جلالة الملك، أنا لا أملك أيّة موهبة، غير أنّني أريد أن أتزوّج، فثمّة من تنبّأ بأنّني سأنجب يومًا ما توأما رائعًا، طفلًا وطفلة.

سلبت الفتاة بحسنها الأخّاذ لبّ الملك، فقرّر الزّواج منها على الفور، وأقيمت الاحتفالات وعمّت الأفراح، فشعرت أختا العروس بغيرة أحرقت فؤاديهما لدرجة أنّهما، بعد عام من العرس وحينما عرفتا أنّ أختهما الصّغرى على وشك أن تضع، قرّرتا رشوة القابلة المكلّفة بتوليدها.

استبدلت القابلة الطّفل والطّفلة بجروين، وأخذت التّوأم إلى بيتها بعد أن أخبرت الأمّ بأنّها قد أنجبت جروين. وكمكافأة على ما فعلت، حصلت القابلة على صرّة ذهب كبيرة.

غضب الملك كثيرًا لمّا علم أنّه صار أبًا لكلبين، وقال متذمّرًا :

— اللّعنة على الأخوات الثّلاث ! أمّا الأولى والثّانية فبلهاء وحمقاء، وأمّا الثّالثة فأنجبت لي كلابًا.

بعد ما حدث، طلّق الملك زوجته و قام بسجنها. أمّا القابلة فلم تقتل الطّفلين كما اتّفقت مع الأختين، لكنّها جلبت صندوقا ووضعتهما فيه، أحكمت إغلاقه وانتظرت حلول اللّيل لتلقي به في مياه البحر المتوسّط الزّرقاء.

حمل التّيّار الصّندوق إلى شاطئ يقطن بالقرب منه صيّاد فقير مع زوجته وأطفالهما الثّلاثة.

رسا الصّندوق على رمال الشّاطئ فالتقطه الصّيّاد وأخذه إلى كوخه البائس ليتفاجأ عندما فتحه بالرّضيعَين. أراد الصّيّاد

حينها أن يعيد غلق الصّندوق ويرميه في البحر من جديد، غير أنّ امرأته منعته قائلة :

— لديّ الكثير من الحليب، ويمكنني إرضاع هاذين الصّغيرين مع طفلنا. فلربّما يكون اللّه قد أرسلهما لنا خصّيصًا لنعتني بهما، وسنكون آثمين إذا تخلّينا عنهما.

ربّى الصّيّاد وزوجته التّوأم كما لو كانا ولديهما، ومنحاهما سعادة العيش في كنف أسرة أفرادها متحابّون. مرّت الأيّام والسّنون، وأيقن التّوأمان أنّهما لا يشبهان إخوتهما ووالديهما، تردّدا طويلًا، لكن انتهيا إلى طلب تفسير للوضع، فأطلعهما الصّيّاد على الحقيقة وأخبرهما أين عثر عليهما.

عرف التوأمان الحقيقة إذن، وعندما بلغا الخامسة عشر من العمر قرّرا الرّحيل بحثًا عن عائلتهما الأصليّة، فاشترى لهما الصّيّاد حمارين امتطياهما، وأعطاهما صرّة وضع بها بعضًا من المال الّذي ادّخره، ورحلا بعد أن قبّلا الجميع واعدين إيّاهم بالعودة في يوم من الأيام.

جاب التّوأمان العديد من المناطق وتوقّفا في الكثير من البلدات دون أن يعثرا على ما من شأنه أن يدلّهما على مكان والديهما الحقيقيّين. وبما أنّ الطرقات لا تؤدّي إلّا إلى حيث

يشاء الله أن يقود المسافرين، وصل التوأمان ذات مساء إلى عاصمة مملكة والدهما ونزلا في خانٍ صاحبُه صديق والد أمّهما، فلاحظ أنّهما يشبهانه منذ أن وقع نظره عليهما، فأخبره بذلك.

كان الجدّ متأكدًّا أن ابنته، شأنها في ذلك شأن باقي النّساء، لا يمكن أن تنجب كلابًا. صحيح ألّا دليل يثبت شكوكه، إلّا أنّه كان مُتيقّنًا بأن أحدهم وضع الجروين في مهد حفيديه.

سارع الجدّ إلى الخان لرؤية التوأمين، ولكم تفاجأ عندما رأى الشّبه الكبير بين الفتاة وابنته الصّغرى. تحدّث الجدّ مع التوأمين فأطلعاه على سنّهما ؛ حينها فقط تأكّد الشّيخ أنهما حفيداه، فدعاهما للإقامة في بيته الفاخر.

استقبل الملك، بعد أيّام قلائل، الشّيخ والتّوأمين، ولاحظ أنّ الطّفل يشبهه كثيرًا، ولمّا تأمّل وجه الفتاة خُيّل له بأنّه يتأمّل وجه زوجته الّتي طلّقها، فقال :

— ليس هناك أدنى شكّ، إنّهما ابناي !

فرح الملك أيّما فرح، وانهال على ابنيه العائدين بالقبلات والأحضان، ثمّ أسكنهما شقّة جميلة في القصر الملكيّ، وأطلق سراح أمّهما لتعيش معهما بعد أن اعتذر لها عمّا بَدَرَ منه.

الأمير الّذي أراد مملكة
(فلسطين)



أحيانًا يكون تأثير الأمّهات على أبنائهنّ حاسمًا.

سئم ملكٌ من زوجته لكنّه لم يطلّقها واكتفى باتّخاذ زوجة ثانية. كان للملك آنذاك وريث وحيد لعرشه، ابن زوجته الأولى، في العشرين من العمر، كان ابنها أملها الوحيد في استعادة هيبتها، ولن يحدث ذلك إلّا بتولّيه الحكم. لكنّها كانت تخشى أن ترزق الزّوجة الثّانية بابن وأن تتمكّن من إقناع الملك بجعله وليًّا للعرش.

في صباح أحد الأيّام، نادت الزّوجة الأولى ابنها وحدّثته عن مخاوفها، ثمّ نصحته قائلة :

— اذهب وقابل أباك قبل أن يجتمع بوزرائه واطلب منه تنصيبك على العرش.

ذهب الأمير على الفور إلى بلاط القصر حيث كان أبوه منهمكًا في العمل كالعادة. ألقى عليه التّحيّة وقبّل يديه مُبدِيًا الاحترام والطّاعة.

— ما سبب زيارتك يا بنيّ ؟

— أبتي، أودّ أن تهب لي هذه المملكة في حياتك. فأجابه الملك قائلًا :

— ماذا ؟ أهبك المملكة ؟ لن يكون لك هذا أبدًا. إن أردت مملكة فعليك أن تحارب لكي تحصل عليها.

انحنى الأمير إجلالًا لوالده الملك وعاد ليروي لأمّه لقاءه المقتضب مع أبيه، فقالت له ناصحة :

— لا تستسلم يا بنيّ، عليك أن تحاول من جديد.

عمل الأمير بنصيحة أمّه، وحدّث أباه في الموضوع مرارًا وتكرارًا، لكنّه لم يَلقَ منه سوى الصّدّ ؛ فعادت الأمّ لتنصح ابنها من جديد :

— والدك متمسّك بعرشه إلى الممات، ولهذا اغتنم أوقاتك في السّفر ففيه منافع جمّة.

عمل الأمير بنصيحة أمّه هذه المرّة أيضًا، فبعد مرور أسبوع من حديثه معها تركا القصر الملكيّ في ساعة مبكرة عبر باب سريّ. لبس الاثنان لباسًا عاديًّا لكي لا يلفتا الانتباه، وعبرا ممرّات ضيّقة ليصلا في الأخير إلى أسوار المدينة وخرجا من باب السّلام.

اتّجه الأمير ووالدته صوب الغرب، وما إن مشيا قليلًا حتّى بدآ يحسّان بأشعّة الشّمس تلفح وجهيهما، وراحت الحرارة ترتفع كلّما ابتعدا عن المدينة وغاصا في أعماق الصّحراء، إلى أن بلغا أخيرًا واحة احتميا بظلال نخلاتها. تمدّدا وأغمضا عينيهما هنيهة علّهما ينسيان الشّمس. بعدها، أخرجت الأمّ من زوّادتها ما جلبته معها من أكل، حفنتين من الزّيتون وخبزًا وحبّات من التّمر. أكل المسافران وشربا القليل من ماء القربة المصنوعة من جلد الماعز الّتي كان الأمير يحملها على ظهره، ثمّ استراحا لوقت طويل دون أن ينبس أيّ واحد منهما ببنت شفة. وفجأة، وقفت الأمّ الّتي تتمتّع ببعض القدرات السّحريّة، وخطت بضع خطوات ثمّ جثت على ركبتيها ورسمت بسبابتها رموزًا، وقفت من جديد وأغمضت

عينيها وركّزت طويلًا قبل أن تصيح وكأنّها مؤذّن يُنادي للصّلاة من على مئذنته مُمجّدًا اللّه :

— يا فطراااااا.

تلبية لنداء أمّ الأمير، ظهر حصان أسود يحمل سرجًا فخمًا من الجلد المزيّن، وكان عرفه الكثيف يضفي عليه هيبة ووقارًا، قالت له :

— يا فطرا، اعتنِ جيّدًا بولدي.

صهل الحصان ففهمت المرأة أنّ بإمكانها الاعتماد عليه. وقالت لولدها وهي تقبّله :

— فلتنطلق الآن على بركة اللّه يا بُنيّ.

امتطى الأمير الجواد وتوجّه غربًا، وفي غضون سُويعات بلغ البحر، فراح يتأمّل زرقته الّتي خالطت زرقة السّماء غير مُصدّق أنّه أمام البحر الأبيض المتوسّط أخيرًا.

لقد كانت تلك المرّة الأولى الّتي يرى فيها البحر، ولشدّة إعجابه بتلك الموجات الّتي كانت تتتابع ثمّ تتلاشى فوق رمال الشّاطئ. بعد ذلك، قفز الأمير من على صهوة حصانه ووقف على الرّمل النّديّ، ثمّ ملأ كفّيه من ماء البحر وتذوّقه، كان يريد فقط التّأكّد من أنّه مالح كما يُقال.

— لنمضِ بمحاذاة الشّاطئ.

أجابه الحصان :

— كما تريد.

— أتجيد الكلام يا فطرا ؟!

— مثلك تمامًا.

— وكيف يمكنك ذلك ؟

— لا تسألني عن ذلك، المهمّ أنّنا نستطيع التّواصل.

امتطى الأمير الجواد ومشى بمحاذاة الشّاطئ، وفجأة حمل النّسيم ريشة صغيرة ناصعة البياض ليحط بها على الحصان الأسود. كانت الرّيشة شديدة البياض ما جعلها تبدو كما لو أنّ نورًا ينبعث منها، فأمسكها الأمير برقّة بين السّبّابة والإبهام ووضعها في جيبه.

بعد بضعة أيام، وصل في إحدى الأمسيات إلى مدينة كبيرة، حجز غرفة في الخان، ثمّ أكل بسرعة، ومن شدّة تعبه خلد إلى النّوم قبل حلول اللّيل. في تلك اللّيلة، أمر حاكم المنطقة ألّا يُشعل أيّ ضوء لكي يتسنّى له التّمييز بين الوفيّ والخائن. بُلّغ الجميع بأوامر الحاكم، السّكّان والغرباء على حدّ سواء، وبلغ الخبر الأمير أيضًا.

في بداية السّهرة تنكّر الحاكم وقائد العسكر بأزياء تجّار بسطاء وذهبا في جولة بالمدينة ؛ جالا فيها شارعًا شارعًا ولم يلمحا أيّ ضوء. لكن عندما اقتربا من الخان وقع نظرهما على ما كانا يترصّدانه، لقد لمحا نورًا منبعثًا من الخان، وبالتّحديد من غرفة الأمير. لقد كانت تلك الرّيشة مصدر الضّياء إذ انسلّت من جيب الأمير بينما كان يبدّل ثيابه لينام، و أنارت الرّيشة المكان وكأنّها فانوس.

لم يشعر الأمير بشيء مما كان يحصل حوله فقد كان يغطّ في نوم عميق. وعند الفجر، طرق الحراس بابه فاستيقظ وتفاجأ بالنور الذي كان يملأ غرفته.

أُلقي القبض بعد ذلك على الأمير واقتيد إلى قصر الحاكم الّذي سأله قائلًا :

— ألم تعلم بحظر التّجوّل الّذي أمرت به البارحة ؟

— بلى، علمت.

— لماذا إذن أشعلت الفانوس ؟

— أنا لم أشعل شيئًا.

— أنت كاذب، لقد رأيت نورًا منبعثًا من غرفتك.

— أنا لم أشعل شيئا، كان ذاك النّور منبعثا من ريشة.

— أتسخر منّي ؟!

— حاشا للّه يا سيّدي، أنا أقول الحقيقة.

— فلتأتني بتلك الرّيشة في الحال.

عاد الحرّاس إلى الخان مع الأمير وأحضروا الرّيشة، وحينها قال الحاكم :

— سأحتفظ بها دليلًا على جرمك، وإذا أردت تفادي السّجن فعليك أن تحضر لي الطّائر الجميل الّذي سقطت منه.

— لكن كيف لي أن أعثر عليه ؟

— حيث التقطت الريشة.

أُرسل أحدهم إلى الخان لجلب حصان الأمير، فروى له ما حلّ به وأخبره بطلب الحاكم ؛ فقال الحصان :

— اطلب منه قفصًا من الذّهب والفضّة مزيّنًا بآلاف الزّخارف.

طلب الأمير القفص وحين حصل عليه امتطى جواده، ورافقه في رحلة البحث حارسان مسلّحان. اتّخذ الجواد السّبيل الذي يجب أن يسلكه، فعبر مسافة طويلة إلى أن وصل إلى إحدى الغابات. تجوّل فيها قبل أن يتوجّه نحو أكبر وأقدم شجرة هناك.

همس الحصان للأمير لكي لا يسمعه الحارسان : تسلّق إلى أعلى الشّجرة وثبّت القفص على غصنها واترك باب القفص

مفتوحًا، ثمّ انتظر. سيقف طائرٌ مهاجرٌ على هذه الشّجرة في المساء، وسيجد القفص جميلًا لدرجة أنه لن يستطيع مقاومة الرّغبة في الدّخول. عندها، أغلق باب القفص على الطّائر بإحكام وانزل.

حطّ الطائر على الشّجرة كما قال فطرا، وحين رأى القفص قال مخاطبًا نفسه : « هذا القفص الجميل لا يليق سوى بطائر مثلي ».

دخل الطّائر القفص ووجد نفسه سجينًا. ونزل الأمير من الشّجرة حاملًا القفص بفخر. عندما بلغ أسفل الشّجرة انتابه الشّكّ فجأة ؛ لماذا لا يشعّ ريش الطائر نورًا ؟ فتح الأمير القفص وأدخل يده. وفي ظلام اللّيل راح يبحث عن الطّائر متحسّسًا القفص بيده، وعندما أحس به في قبضة يده اقتلع منه ريشة. حينها أشعّت الرّيشة نورًا وأضاءت الغابة، فاطمأنّ الأمير وتأكّد من أنّه يمسك بالطّائر المُراد.

نام الأمير في الغابة بالقرب من الحارسين اللّذين تناوبا على حراسته، ثمّ عادوا أدراجهم في الصّباح الباكر.

غمرت السّعادة الحاكم لمّا رأى العصفور ذا الرّيش البرّاق، لكن سرعان ما حلّت طلبات جديدة مكان حماسته.

فقال للأمير :

— أريد أن تجلب لي صاحب أو صاحبة هذا الطّائر الأبيض. أنا متأكّد من أنّه شخص يملك قدرات كبيرة.

فأجاب الأمير متوسّلًا :

— الرّحمة يا مولاي أنت تطلب منّي المستحيل.

— لا تجادلني وأطع أمري إذا أردت أن لا تُنهي أيّامك في السّجن.

تكلّم الأمير مع الحصان الّذي نصحه قائلًا :

— اطلب من الحاكم سفينة من الذّهب والفضّة منقوشة بآلاف الرّموز.

طلب الأمير من الحاكم ما نصحه الحصان به وحصل على سفينة رائعة وطاقم تحت إمرته، وأوضح له فطرا ما يجب فعله لاختطاف الفتاة صاحبة الطّائر الأبيض.

أبحر الأمير باتّجاه الشّمال لمدّة أسبوع قبل أن يرسو في ميناء مدينة كبيرة، وراح يصيح :

— « زيارة مجّانية على أجمل سفينة في العالم ».

— أسرع حشد من النّاس نحو السّفينة، ولمدّة ثلاثة أيّام تعاقب المئات من الزّوّار الّذين انبهروا بما كانوا يشاهدونه.

كان ملك تلك البلاد يملك قصرًا في تلك المدينة. وزارت إحدى خادمات ابنته سفينة الأمير، وعبّرت للأميرة عن إعجابها الشّديد بما رأت، ما جعل هذه الأخيرة ترغب في زيارة السّفينة.

— في صباح اليوم الرابع توجّهت الخادمة إلى السّفينة وأخبرت الأمير أن سيّدتها ستأتي لزيارتها خلال المساء.

فأجاب الأمير : سأتشرّف باستقبالها.

كانت الأمور تجري كما خطّط لها فطرا : اعتبارًا من منتصف النّهار لم يعد الأمير يقبل أيّ زائر على متن السّفينة، وصلت الأميرة مع خادمة واحدة. كانت الأميرة جميلة جدًّا، واستقبلها الأمير في أسفل جسر الرّكوب على السّفينة فانبهر بجمالها. صعدا على متن السّفينة وأبحر الطّاقم مباشرة.

تظاهرت الأميرة بعدم ملاحظة ذلك، وبعد انتهاء الزّيارة عرض عليها الأمير غداءً خفيفًا.

سألته الأميرة :

— أين تأخذني ؟

وقبل أن يجيبها سألته :

— أتخطفني أم تأخذني في نزهة في البحر ؟

أجاب الأمير بإيجاز : « الاثنان معًا ».

فاقترحت الأميرة الّتي وجدت الأمير جذّابًا : « لنتعرّف إذن على بعضنا البعض ».

عندها أخبرها الأمير بالخطر الّذي يداهمه إن لم يحضر صاحبة الطّائر الأبيض، فأجابته الأميرة أنّها تملك قدرات كبيرة دون أن تدخل في التّفاصيل. وبما أنّ الشّابّ كان يعجبها قبلت أن ترافقه عند الحاكم، وقالت له :

— أنا لا أخاف هذا الحاكم.

استمتع الشّابّان بالأوقات الطّويلة الّتي أمضياها معًا في التّعارف، وبدا لهما السّفر قصيرًا، وحين وصلا إلى قصر الحاكم محاطين بالحرّاس المكلّفين بحراسة الأمير.

قال الأمير :

— لقد أحضرت صاحبة الطّائر الأبيض.

فأجاب الحاكم :

— هذا الطّائر السّحريّ يجعلني أفكّر في أنّكِ تملكين قدرات عديدة، أرجو أن تحدّثيني عنها.

رفضت الأميرة فهدّدها الحاكم ممّا أثار غضبها واقتربت منه قائلة :

— هذا مثال على قدراتي، قالت ذلك وهي تنفخ في عينيه، ففقد الحاكم البصر في الحين، وفرك عينيه وهو يصرخ بأنّه لم يعد يستطيع الإبصار.

أراد الحرّاس أن يقبضوا على الأميرة لكنّها بحركة من يدها أسقطتهم أرضًا فاقدين الوعي، ثمّ قالت للحاكم :

— إذا أردت أن تستعيد بصرك، أعد لي طائري الأبيض وعدني ألّا تزعج الأمير ثانية.

كان الحاكم مجبرًا على القبول.

أطلقت الأميرة سراح الطّائر الّذي واصل هجرته نحو إفريقيا. كان يعود في ربيع كلّ سنة ويمضي عدّة أشهر في حدائق الأميرة قبل أن يعود أدراجه.

احتفظ الأمير والأميرة بالسّفينة الذّهبيّة والفضّيّة المنقوشة بآلاف الأشكال، لكي يعودا نحو موطن الأميرة.

كانا يحبّان بعضهما وقرّرا أن يتزوّجا، فقبل أب الفتاة. وبما أنّه كان بلا ولد، قرّر أن يجعل من صهره وريثًا لمملكته، وبعد بضعة أشهر توفّي العجوز وأصبح الأمير على رأس المملكة.

سُرّت أمّ الأمير لمّا زُفّ إليها الخبر، إذ تحقّقت أمنيتها، وشعر أب الأمير بفخر كبير وفكّر : « في يوم من الأيّام ستتّحد مملكتانا وتشكّلان مملكةً كبيرة ».

وحتى يتمكّن من تحقيق هذه الأمنية ولّى ابنه حاكمًا على مملكته أيضًا.

إليسا

(فينيقيا)



كانت إليسا أميرةً على « صور »، وهي إحدى المدن الفينيقيّة المتمتّعة بالحكم الذّاتيّ، على غرار « صيدا » و« بيبلوس » و« باريتوس »، وكلّها مدنٌ تقع حاليًّا على السّاحل اللّبنانيّ. أُجبرت إليسا على الفرار من مسقط رأسها، وأسّست إمبراطورية هائلة. يطلق الرّومان عليها لقب « ديدون » وهو لفظ لاتينيّ يعني « الشّريدة ».

كانت لبيجماليون أُختٌ تُدعى إليسا. وقد آل إليه الحكم على « صور » منذ أن توفّي والدهما. ومع أنّه كان المَلِك،

إلّا أنّ هذا لم يحل دون شعوره بالغيرة من إليسا الّتي تزوّجت كاهن « ملقارت » المُسمّى « أشرباس ». كان أشرباس شخصًا شديد الثّراء أحبّته إليسا حبًّا جمًّا.

ذات يوم، قرّر بيجماليون قتل صهره والاستحواذ على ثروته. في ذلك اليوم، خرج أشرباس للصّيد، فيما جلست إليسا تنتظر عودته بفارغ الصّبر. ولكن بعد أن خيّم الظّلام واستمرّ غيابه، بدأ القلق يُساورها. وبذلت جارياتها جهدهنّ لطمأنتها، وقلن لها بأنّ زوجها قد استُدعي على جناح السّرعة في مُهمّة إلى مدينة مجاورة، ولا شكّ أنّه سيعود في الغد.

في آخر المطاف، مضت الأميرة إلى غرفتها دون أن تتناول وجبة العشاء. وقبل أن تنام، صلّت للإله « بعل » وأضاءت شمعة وهي تتوسّل إليه أن يعيد إليها زوجها سالمًا غانمًا.

أثناء نومها، رأت إليسا أشرباس في كابوس مزعج. كان شاحب اللّون، غائر الوجنتين. قال لها في صوت هادئ هدوءًا غريبًا : « لقد قتلني شقيقك، اهربي قبل أن يؤذيكِ أنت أيضًا. إنّه يريد الاستيلاء على كنزي. أنت الوحيدة الّتي تعلم المكان حيث أخفيته. هيّا بسرعة، خذيه وابتعدي عن صور ».

استيقظت إليسا وهي تتصبّب عرقًا. كانت تئنّ وفرائصها ترتجف. غسلت وجهها ببعض الماء البارد فاستعادت

سكينتها. كانت الأميرة شجاعةً ذات حيلة، فجمعت أقرباءها وروت لهم رُؤياها، وأخبرتهم بأن يستعدّوا للرحيل عن صور على عَجل؛ ذلك أنّ بيجماليون خطير وفي وسعه القيام بأشنع الأمور في سبيل الحصول على كنز أشرباس. ثمّ استدعت الأميرة بعض الرّجال المخلصين، وبعد أن شرحت لهم الوضع، كلفتهم بتجهيز سفينتها، وقالت لهم:

— عبّئوا جوف السّفينة بكلّ ما ترونه مُفيدًا في رحلة لا رجوع لها، وأريدكم أن تضعوا على ظهرها عشرين كيسًا من القمح.

مضت إليسا لإحضار كنز أشرباس وأخفته في زاوية من زوايا جوف المركب، ثمّ أعلمت أخاها بأنّها ذاهبةٌ للاستجمام لبعض الأيّام في إحدى الجزر المجاورة. ولكنّ بيجماليون فرض عليها اصطحاب بعض الجنود بذريعة ضمان حمايتها، والواقع أنّ الملك أمرهم بمراقبة الأميرة عن كثب، وأن يُحيطوه علمًا بأيّ معلومة قد يحصلون عليها بشأن كنز أشرباس.

رُفعت مِرساة السّفينة فانطلقت نحو عرض البحر. وفي اليوم التّالي، عزمت إليسا على البدء في تنفيذ المخطّط الّذي سطّرته. اعتلت ظهر السّفينة واقتربت من أكياس القمح

وراحت تصرخ : « آآه ! يا زوجي المسكين، ما عساي أفعل بدونك ؟ وما عساي أفعل بكل هذا الذّهب وهذه المجوهرات الآن بعد أن رحلت ؟ »، وفيما كانت تنتحب وتبكي، قام خمسة من البحّارة برمي أكياس القمح إلى الماء. كان أداؤهم سريعًا فلم يتمكّن أحد من منعهم من فعل ذلك. أخذ القلق من جنود بيجماليون كلّ مأخذ، بعد أن اقتنعوا بأنّ الأكياس كانت تحوي فعلًا كنز أشرباس. ولو علِم الملك بما حدث، فلا مَحَالَةَ أنّه سيفصل رؤوسهم عن أجسادهم، ولم يعد لهم مناص إلّا الانضمام إلى إليسا، وهذا ما قاموا به. وهكذا، غمرت البهجةُ الأميرةَ، فقد تمكّنت من الفرار من صور، كما احتفظت بكنز زوجها.

واجهت السّفينة، ولعدّة أيام، الأمواج المتلاطمة في البحر الأبيض المتوسّط، ثمّ استقرّ الطّقس هادئًا، وأخيرًا برزت إفريقيا في الأفق، وحينما باتوا على مشارف ساحلها، أُلقيت مرساة السفينة، ونزلت إليسا وبعض الصّوريّين لاستكشاف المكان. في آخر المطاف، صادفوا فلّاحَيْن اثنين وافقا على إرشادهم إلى حاكم المنطقة. استقبل الحاكم الأميرة فطلبت منه السّماح لها بالاستقرار على شاطئ البحر. ارتسمت الابتسامة على وجه الحاكم ووافق على طلبها، ولكنّ العرف

في تلك البلاد كان يمنع على الغرباء امتلاك قطعة أرض يفوق مُحيطها مُحيط جلد ثور.

فكّرت إليسا واهتدت إلى حيلة ؛ اقتنت أكبر جلد ثور وجدته، وطلبت من أمهر خدمها تقطيعه إلى شريط دقيق. كان الشّريط طويلًا جدًّا عند تمديده، فتمكّنت الأميرة من أن تُحيط به مساحة شاسعة من الأرض.

— يا لكِ من داهية !

هذا ما قاله الحاكم للأميرة، وقد أعطاها الأرض في تصرّف يخالف العرف ويحترمه في آن معًا.

وعلى هذه الأرض الّتي اشترتها إليسا، شُيّدت مدينة « قرط حداشت »، أو المدينة الجديدة، والّتي لم تكن إلّا المدينة الّتي ستحمل لاحقا اسم « قرطاج ».

الأشقّاء الثّلاثة

(لبنان)



هل ستوافقون على الخيار الّذي
اتّخذته الفتاة في هذه الحكاية ؟

كان يا ما كان في قديم الزّمان، مزارع وزوجته يعيشان في قرية من قرى جبل لبنان. كانا يملكان حقلًا صغيرًا تربته خصبة، وكان الزّوج يزرعه قمحًا وذرة. وفي محيط البيت، غرس الرّجل ثلاث شجرات زيتون وشجرتي برتقال. كان يعصر من الزّيتون زيتًا لاستهلاكهم الخاصّ، وحينما تكون الغلّة وفيرة يبيعون جزءًا منه لجيرانهم.

وبمجرّد ما تتفتّح أزهار البرتقال، تبدأ المرأة في النّهوض باكرًا لتلتقط الأزهار البُرعميّة، ولا تكفّ عن رحلة القطف اليوميّة إلّا إذا اشتدّ القيظ أو كثُرت أعداد النّحل، فحينها تباشر في فتح البراعم ولملمة البتلّات لتصنع منها ماء الزّهر الّذي تبيعه في السوق.

كانت لهذين الفلّاحَين بنتٌ وحيدة في سنّ الزّواج، واسمها « وردة ». كان لوردة شعرٌ فاحم وعينان لوزيّتان. وقد بلغت من الجمال مبلغًا جعل كلّ فِتيان القرية يحلمون بالاقتران بها، ولكنّ الأمّ كانت تصدّ كلّ المتقدّمين لخطبتها، قائلة بأنّها لن تزوّج ابنتها إلّا للشّخص الّذي سيأتيها بهديّة لا مثيل لها في العالم. ولم يَدْرِ الفتيان ما يفعلون... وعرض عليها بعضهم حميرهم، والبعض الآخر جِمالهم، ولكنّ الأمّ كانت تهزّ كتفيها مُبتسمة وتقول :

— الحمير والجِمال متوفّرة في كلّ مكان. يجب أن تُقدّم لابنتي هديّة فريدة لا مثيل لها في العالم.

بحث الفِتيانُ مطوّلًا في المنطقة دون أن يعثروا على شيء مثير للاهتمام، وفي الأخير سئموا من البحث، وتزوّجوا من فتيات أخريات في القرية. ولم يبق في القرية إلا ثلاثة فِتيان متشبثين برغبتهم في الزّواج من الفتاة. كانوا ثلاثة إخوة مغرمين بوردة غرامًا كبيرًا. قال أكبرهم :

— السّبيل الوحيد لإيجاد هديّة فريدة من نوعها هو السّفر.

أجاب الأخوان الآخران :

— معك حقّ.

بعد أيّام من ذلك، غادر الأشقّاء الثّلاثة القرية حاملين زادهم. ساروا لفترة طويلة ثمّ انتهوا إلى واحةٍ حطّوا بها الرّحال مدّة يومين، اشتروا بعض التّمر والرّمّان، ثمّ شدّوا الرّحال من جديد. عند خروجهم من الواحة، وجدوا أنفسهم أمام ثلاث سبل، فقرّروا الافتراق على وعدٍ بالالتقاء مجدّدًا في نفس المكان بعد عام. وقال أحدهم :

— سنرى ماذا سيجد كلّ واحد منّا، ونعود إلى البيت سويًّا.

وهكذا، اتّخذ كلّ واحد سبيلًا ؛ ذهب أكبرهم في طريق الغرب المؤدّي إلى البحر، فيما مضى الثّاني نحو الشّمال، أمّا الثّالث فقد توجّه صوب الجنوب.

تجوّل الأخ الأكبر بعض الوقت في ميناء بيبلوس قبل أن يُبحر على إحدى السّفن الّتي طافت على أرجاء البحر الأبيض المتوسّط متنقّلة من جزيرة إلى جزيرة.

زار جُزر قبرص وكريت وصقلية وسردينيا وكورسيكا قبل أن يُعرّج على جزر البليار. كانت أوّل مرّة يسافر فيها على متن سفينة، بل أوّل مرّة يرى فيها البحر. وقد استقبله النّاس

الّذين قابلهم في تلك الجُزر أحرّ الاستقبال ؛ كانوا يمدّونه بالمعلومات ويُرافقونه أحيانًا في رحلة بحثه عن الهديّة المنشودة. وفي طريق عودتها، توقّفت السّفينة في مالطا قبل أن تستأنف مسيرها إلى بيبلوس.

قطع الأخوان الآخران بدورهما بلدانًا عديدة وبحثَا طويلًا قبل أن يعثرَا على هديّتين جديرتين بمقام وردة.

مرّت السّنة، وحلّ الأخ الأكبر بالواحة مُمتطيًا جوادًا أصيلًا رائعًا. كان أوّل الواصلين. ترجّل من حصانه وربطه، ثمّ استلقى وغفا تحت ظلّ نخلة. فيما بعد، حضر الأخوان الآخران. وأخذا يهزّان شقيقهما الأكبر قائلَيْن :

— أأنت هنا منذ وقت طويل ؟

— منذ حوالي ساعة.

— لقد أحضرتَ حصانًا جميلًا !

— إنّه سريع كالبرق، ويمكنه أن يبلغ الطّرف الآخر من الأرض في لمح البصر. وقد استغرقت بضع ثوانٍ فقط لأصل إلى بيبلوس. وأنتما، ماذا جلبتما ؟

قال الأخ الثّاني :

— أنا اقتنيت مرآةً حينما ينظر المرء فيها ويفكّر في الفتاة الّتي يحبّ، تتراءى له مباشرة.

وقال الثّالث :

— أمّا أنا فقد تقاسمت طعامي مع رجل عجوز جائع، وتعبيرًا عن شكره، أعطاني هذه الحبّة الصّغيرة من البرتقال، الّتي إذا عصرتها في فم شخصٍ مات لتوّه، فستُعيد الحياة إليه.

كان الأشقّاء الثّلاثة سعداء بالتئام شملهم من جديد، وتناولوا طعامهم وهم يتجاذبون أطراف الحديث حول أسفارهم. وعندما فرغوا من الأكل، أخرج صاحب المرآة مرآته من الكيس الّذي يحفظها واقترح على شقيقيه مُشاهدة وردة. فأخذوا يفكّرون فيها بقوّة فظهرت صورتها. وما كادوا يرونها حتّى أجهشوا ثلاثتهم بالبكاء، حائرين بين سرورهم لرؤية الفتاة الّتي يحبّون وحزنهم على وفاتها. نعم، لقد فارقت « وردة » الحياة قبل حين، وشاهدوها مُمدّدة على نعش الموت.

وفجأة، قال صاحب البرتقالة :

— لنهدأ، فلديّ ما يعيد وردة إلى الحياة.

وأضاف الأخ الأكبر وهو يفكّ وثاق حيوانه :

— لنستعمل حصاني، وسنكون إلى جانبها في وقت وجيز.

امتطى الإخوة الثّلاثة صهوة الجواد. وأشاروا إليه بأن ينطلق بهم إلى بيت وردة. وبعد لحظات معدودات كانوا يقفون أمام عتبة بابها. وأخبروا أمّها بأنهم جاؤوها بهدايا لا مثيل لها في كل العالم.

فأجابتهم :

— لم يعد لهداياكم فائدة، فابنتي قد ماتت.

هتف صاحب البرتقالة :

— لديّ شيء سيعيد الحياة إليها. دُلّيني على غرفتها.

تُرك الأخ بمفرده مع المتوفاة. قطّع البرتقالة نصفين وعصرها، ثمّ أسال العصير بأكمله في فمها. وتلوّن وجه وردة ثانيةً، فتحت عينيها وبدأت تتكلّم، قالت :

— إنّ هذا العصير لذيذ.

بعد مرور بضعة أيّام، جاء الإخوة الثلاث يطلبون من وردة اختيار زوجٍ لها من بينهم. وتقدّم كل واحد منهم بهديّته. قال أحدهم :

— لولا مرآتي لما كنّا عرفنا أبدًا بوفاتك.

ردّ الثاني :

— أجل، ولكن، لولا حصاني لكنّا اضطررنا للمشي طويلًا إليك، ولما كنّا وصلنا في الوقت المناسب أبدًا.

أضاف الثّالث :

— هذا صحيح، ولكن لولا برتقالتي ما كنتِ يا وردة بيننا الآن.

قرّرت الفتاة أن تفكّر مليًّا قبل أن تختار، وقالت :

— أمهلوني أسبوعًا وسأعطيكم جوابي.

خلال الأيام التّالية، احتدم النّقاش بين القرويّين حول الموضوع. وكلّما اقترح أحدهم حلًّا، كان نصف أهل القرية يصطفّون معه، والنّصف الآخر يخالفون رأيه.

في اليوم السّابع، استقبلت وردة وأبواها الأشقّاء الثّلاثة. وقالت الفتاة :

— ثلاثتكم أحضرتم هدايا فريدة من نوعها لا مثيل لها في العالم، وأشكركم على ذلك. ونظرًا إلى أنّ هداياكم تتساوى فيما بينها من حيث قيمتها، فيمكنني أن أتزوّج أيّ واحد بينكم. ولكن عليّ أن أختار واحدًا فقط ؛ ولذا قرّرت أن يكون أكثركم كرمًا هو زوجي. أرى أنّ صاحب المرآة لا يزال يملكها حتّى الآن، ومالك الحصان يحوز حصانه دائمًا، أمّا من جلب البرتقالة فلم تعد لديه برتقالة بعد أن ضحّى بها ليُعيدني إليّ الحياة ؛ وهكذا، فهو أكثركم كرمًا، وهو من سأتزوّجه.

وجد سكّان القرية بأسرهم أنّ اختيار وردة اختيارٌ حكيم. وتزوّجت الفتى الّذي وقع عليه اختيارها ونعما بحياة ملؤها السّعادة.

السّمكة السّوداء الصّغيرة

(قبرص)



عزّ من قنع وذلّ من طمع، فمن طمع
في الفوز بكلّ شيء خسر كلّ شيء.

في قديم الزّمان، كانت قرية قبرصيّة صغيرة يشتغل أهلها في الصّيد، وهي مهنة لم تجلب لأحد منهم الثّراء قَطّ. كان الرّجال يسعون في البحر لاستخراج ما يقتاتون به، كما أنّ النّساء، كسائر مثيلاتهن في البلدان المتاخمة للبحر الأبيض المتوسّط، لم يكنّ عاطلات عن العمل، كنّ يصنعن الخبز، ويطبخن، ويتدبّرن أشغال المنزل، ويسهرن على رعاية الأطفال الكثيري العدد في معظم الأحيان، وفوق هذا،

يجدن الوقت للقيام بأعمال التّطريز الّتي يبعنها في سوق المدينة المجاورة، والمحظوظاتُ جدًّا فقط كنّ يملكن بعض أشجار الزّيتون الّتي تتيح لهنّ ادخار بعض الزّيت لاستعماله خلال السّنة.

ذات ليلة، جلس صيّاد فقير أمام صنّارته الّتي لم تقترب منها سمكة، وراح يفكّر قلقًا في الكيفيّة الّتي يستطيع بها الاستمرار في توفير الطعام لأطفاله السّتّة. كان الفجر على وشك البزوغ، وقد اصطبغ الأفق بحمرة خفيفة. استيقظ البحر الّذي كان في قمّة هدوئه إلى ذاك الحين، وأرسل أولى مُوَيْجاته التي كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة عند وصولها إلى الشّاطئ. كان الرّجل متعبًا، متعباً من كدّه طوال اللّيل دون فائدة، ومتعبًا من اضطراره إلى العودة إلى بيته مرّة أخرى خاوي الوفاض، ومتعبًا من كونه فقيرًا. فجأة، اهتز أعلى قصبته، فتسرّب إلى نفس الصّيّاد بعض الأمل. وسرعان ما تقوّست القصبة، فجذبها، وأحسّ منها مقاومةً ؛ لقد اصطاد شيئًا ما. سحب الصّيّاد حبله فلم يخرج من الماء إلّا سمكة صغيرة ذات لون أسود. أمسك بها الصّيّاد كي يفكّها عن الصّنّارة، فسمع صوتها وهي تترجّاه :

— أعدني إلى الماء.

سأل الصّيّاد :

— ولماذا أعيدك إلى الماء ؟

قالت السّمكة :

— لأنّك إن فعلت ذلك، فسألبّي لك الأمنية الّتي تختارها.

فكّر الصّيّاد في أنّه لن يخسر شيئًا ذا قيمة إن أخلفت السّمكة وعدها، فهي ليست إلّا سمكة صغيرة ؛ فألقى بها في البحر، وعندها قالت :

— حسنًا أيّها الصّيّاد، ما هي رغبتك ؟

— أرغب في أن أعود إلى مسكني فأجد خبزًا ولحمًا هناك.

قالت السّمكة الصّغيرة السّوداء واعدةً إيّاه :

— سيكون لك ما أردت.

كان النّهار قد أقبل حينما وصل الرّجل إلى منزله، وبعد أن رتّب عُدّة صيده في مكانها لاحظ اللّحم والخبز، وأنّ السّمكة قد صدقت في كلامها. سألته زوجته :

— من أين جاء كلّ هذا الطّعام ؟!

قصّ عليها ما حدث، فعقّبت الزوجة على حديثه قائلةً :

— لقد جاءك الحظّ من أوسع أبوابه.

قال الرّجل :

— أجل، ولكن، كان يجدر بي أن أطلب منزلًا جميلًا.

— ما يهمّ هو أنّنا نملك ما نُطعم به أطفالنا.

— أنت مُحقّة. ولكن، إذا ما اصطدت هذه السّمكة مرّة أخرى فسأطلب منها قصرًا.

في مساء الغد، أمسك الرّجل بالسّمكة الصّغيرة ذاتها، فقالت له :

— أعدني إلى الماء وسأهديك أطيب المأكولات.

قال الصّيّاد :

— أفضّل لو تمنحيني قصرًا فاخرًا مليئًا بالخيرات.

— كما تريد.

ألقى الرّجل بالسّمكة في البحر. وعند عودته، وجد في مكان منزله السّابق القصرَ الّذي طلبه.

وحدّث الصياد زوجته قائلًا :

— حينما أمسك بهذه السّمكة في المرّة القادمة، سأطلب منها أن تجعلنا ملِكًا وملكة.

بعد أيّام قليلة من ذلك، وقعت السّمكة الصّغيرة السّوداء بين يدي الصّيّاد مجدّدًا.

فقالت له :

— كن كريمًا وأعدني إلى الماء دون أن تطلب شيئًا في المقابل.

ردّ الصّيّاد في غرور :

— أبدًا، لن أفعل ذلك.

كرّرت السّمكة :

— تحلّى بالكرم.

لكنّ الصّيّاد أجابها :

— إن أردتِ أن أعيدك إلى الماء، فعليك أن تجعليني ملكًا وزوجتي ملكة.

— حسنًا، أنا موافقة !

أعاد الرّجل السّمكة إلى الماء، وعندما عاد إلى منزله ذُعر لمّا رأى قصره قد اختفى، ووجد في مكانه مسكنه الخَرِب الوضيع وبداخله أطفاله السّتّة يصرخون من الجوع. وسرعان ما أدرك الصّيّاد أنّ جشعه قد أدّى به إلى الضّياع. أمّا السّمكة السّوداء الصّغيرة فلم تكن ترغب في الوقوع بين يدي الصّيّاد من جديد، وابتعدت في عرض البحر، ولكنّها أوفت بوعدها على طريقتها الخاصة، فمنحت الصّيّاد وزوجته تاجين مصنوعين من الأشواك.

أحسنت !

(سوريا)



﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (سورة البقرة : الآية 153)، هي العبرة الّتي نستقيها من هذه الحكاية الّتي تروي لنا عن ذلك الصّيّاد المتواضع الّذي دأب على جلب أكبر الأسماك الّتي يغنمها من الصّيد إلى الملك. ولكن، ما لم يكن هذا الصّيّاد يعلمه هو أنّ السّمك ليس الطّعام المفضّل للملك. فهل يتمكّن مع ذلك من جني بعض الفائدة من صيده ؟

كان أمين رجلًا شجاعًا طيّبًا كريمًا، لا تفارق الابتسامة محيّاه أبدًا. كان يحظى بتقدير الجميع في قريته، ويعيش حياة هانئة مع زوجته الّتي تحبّه. اشتغل أمين صيّادًا، يغادر منزله مع بزوغ الفجر في كلّ صباح، ويتوجه مفعمًا بالأمل إلى البحر. كان يحبّ مهنته، وحتّى في الأيّام الّتي يشحّ فيها الصّيد، كان يعتقد في نفسه المؤمنة بالقَدَر أنّ الغد سيكون أفضل من دون شكّ.

ذات يوم، ألقى أمين صنّارته في البحر، وانتظر ساعاتٍ دون جدوى. كان يحملق شارد الذهن في الغمام الّذي يغشى الأفق، حتّى أحسّ بارتجاج عنيف يهزّ قصبته الخيزرانيّة الّتي انثنى رأسها ؛ وبحركة خاطفة، جذب الصّنّارة فانغرز الشّصّ في السّمكة الّتي التقمت الطّعم، ثمّ راح يسحب خيط صنّارته والسّمكة تتخبّط. لقد كان حجمها كبيرًا، وبرزت من البحر يغطّيها الزّبد وهي تضرب الهواء بذيلها، فانزاح عنها غطاء الزّبد المؤقّت قبل أن تسقط مجدّدًا في الماء بكلّ ثقلها، حيث كافحت بقوّة من أجل تخليص نفسها، غير أنّ الخيط كان متينًا والشّصّ منغرسًا بعمق داخل بطنها، كما أنّ أمين كان مُصمّمًا ألّا يترك غنيمته تفلت منه. وبعد حين، خارت قوى السّمكة وقد فقدت كلّ أمل في الخلاص، وانتهى بها الأمر ملقاةً على رمال الشّاطئ النّاصعة. وبينما جلس

الصّيّاد ليرتاح، كانت السّمكة تحتضر على مقربة منه. عندما استعاد أمين أنفاسه، حمل السّمكة بين ذراعيه وسار بها إلى منزله، وما إن لمحتها زوجته حتّى هتفت إعجابًا :

— يا لها من غنيمة جميلة !

وأجاب الصّيّاد مبتسمًا :

— ستجلب لنا مبلغًا ضخمًا غدًا في السّوق.

ردّت الزّوجة :

— ستجني مبلغًا أكبر بكثير إن حملت هذه السّمكة إلى الملك.

وكان هذا ما حدث فعلًا. غير أنّ الملك لم يُبْدِ اهتمامًا كبيرًا بالسّمكة. ولم يُعطِ لأمين شيئًا في مقابلها، بل اكتفى بالقول من أطراف شفاهه :

— أحسنت !

وغادر المسكين القصر الملكيّ واجمًا، وعاد حزينًا إلى مسكنه. قالت له زوجته كي تخفّف من خيبته أنّ الملك، على الأرجح، يعاني من خطب ما، ولا يجب أن يعتب عليه، ثمّ أضافت :

— معروفٌ عن الملك أنّه إنسان طيّب كريم.

قال الصّيّاد متذمّرًا :

— ومع هذا، لم أحصل منه على شيء.

— يجب أن تتعلّم الصّبر. ربّما سيكافئك بعد أن يتذوّق طعم السمكة.

بعد أسبوع من ذلك، اصطاد أمين سمكة أكبر من الأولى، وعزم على أن يذهب بها إلى السّوق ليبيعها، ولكنّ زوجته أقنعته بالعدول عن قراره، وقالت :

— سيكون من الأفضل لو تعود بها إلى القصر.

ومثلما حدث في المرة الماضية، ألقى الملك على السّمكة نظرة لا مبالاة، وقال في إيجاز بنبرة متعجرفة :

— أحسنت !

فانصرف الصّيّاد خائبًا مغتاظًا. وسألته زوجته حينما عاد :

— ماذا حصل ؟

— لا شيء ! لا شكر، ولا حتّى ابتسامة. فقط كلمة « أحسنت » تلفّظ بها من أطراف شفاهه، وتقولين بأنّ الجميع يتغنّى بكرمه...

بعد مرور بضعة أيّام، أمسك أمين بسمكة أكبر من سابقتيها. وقال لزوجته :

— ستأتين برفقتي غدا إلى السّوق كي تساعديني في تقطيعها وبيعها.

لم تكن الزّوجة موافقة على رأي زوجها، ولكنّها أومأت برأسها مُتظاهرة بالقبول. وفي صباح اليوم الموالي، زعمت أنّها رأت في منامها ملكًا يقدّم العطايا والهدايا لأحد الرّجال. وقالت مُفسّرةً :

— لقد كان رجلًا يشبهك يا زوجي العزيز. فمن الأجدر بنا، إذن، أن نذهب إلى القصر.

وافق الصياد وانطلقا سويًّا إلى مقصدهما، وهناك، نظر الملك إليهما شزرًا، ولم ينبس إلّا بكلمة : « أحسنت ! ».

قال الصّيّاد لزوجته بينما كانا يبتعدان عن القصر :

— إن الملك شخص مزدرٍ وجاحد.

سألته المرأة :

— ولكن، ما الّذي يجعله يتصرّف هكذا ؟

— لا أدري، ولن نهديه أيّ شيءٍ بعد الآن أبدًا.

— معك حقّ...

بعد تفكير عميق، عزم الصياد على أمرٍ ما ؛ فقصد الجزّار وأوصاه بعشرة كيلوغرامات من اللّحم، وطلب منه أن يحملها له إلى بيته، ثمّ ذهب إلى بائع القماش وانتقى عدّة قطع وترجّاه أن يوصلها إليه في المنزل. وبعد أن تسلّم طلباته، شكر أمين التّاجرين قائلًا ببساطة : « أحسنتما ! ».

ولأنّهما يعرفانه، فكّر التّاجران في أنّ أمين سرعان ما سيمرّ عليهما ليدفع ثمن ما اشتراه، ولكنّ هذا لم يحدث. وبعد مضيّ بعض الوقت، تملّكهما القلق وأقبلا على بيت الصّيّاد ليطالباه بحقّهما، فقال مُدّعيًا :

— ولكنني دفعت لكما.

وردّ التّاجران بتعجّب :

— لا، أبدًا !

— أَلَم أقل لكما : « أحسنتما ؟ » إذا اعتقدتما بأنّني أدين لكما بأكثر من ذلك، فيمكنكما أن تذهبا وتشتكيا ضدّي.

وكان هذا ما فعله التّاجران حينما امتثلا بين يدي الملك. وبعد أيام قليلة، استدعى الملك النّصّاب والمشتكيان، وقال :

— لماذا لم تدفع ثمن البضائع الّتي سلّمها إيّاك هذان التاجران ؟

— ولكنّي دفعت يا جلالة الملك !

— إذن، لماذا يشتكيان ضدّك ؟

— لقد دفعت لهما بنفس الطّريقة الّتي كنتَ تدفع لي بها في مقابل ما كنتُ أجلبه لك.

— ذكّرني ماذا كنت تجلب لي.

— حسنا، أحضرت لك سمكة كبيرة اصطدتها، ثمّ واحدة ثانية، وأخيرًا سمكة ثالثة، وكلّ مرّة كنت تكتفي بقولك لي : « أحسنت ! »، دون أن تعطيني أيّ شيء. وأنا بدوري قلت لهذين التّاجرين « أحسنتما ! ». فكيف لي أن أفعل أحسن ممّا فعل الملك، أنا الصّيّاد المتواضع ؟

انفجر الملك ضاحكًا، وأمر خازنه :

— ادفع لهذين التّاجرين حقّهما من مالي الخاص، وامنح لهذا الصّيّاد كيسًا من القطع الذهبية ثمنًا للسّمكات الّتي جلبها لي.

ابن الصّيّاد

(تركيا)



إذا طلبت منك إحدى السّمكات أن تعيدها إلى الماء، فلا تتوانَ عن فعل ذلك ؛ فقد يعود عليك صنيعك ذاك ببعض النّفع، كما جرى مع أبطال حكايتنا هذه.

يُروى أنّ صيّادًا كان يعيش مع زوجته وابنه في منطقة ساحليّة تطلّ على البحر الأبيض المتوسّط. وذات يوم، هبّت عاصفة هوجاء فسحبت قاربه إلى عرض البحر. ولأنّه لم يكن يكسب إلّا ما يسدّ به رمق أهله، وما كان يستطيع قَطّ أن يوفّر بعض المال، وجد نفسه عاجزًا عن اقتناء قارب آخر ؛ فاضطرّ

إلى أن يصطاد من الشّاطئ باستخدام شبكة رمي مخروطيّة الشّكل. وكان ابنه البالغ عشرة سنوات ينظمّ إليه لمساعدته بين الفينة والأخرى خارج أوقات المدرسة. كان يروق للأب أن يمنحه الشّبكة فيرميها الصّبيّ بحركة قويّة إلى البحر.

ذات يوم، وبينما كانا يصطادان سويًّا، أمسك الأب سمكة ضخمة، سحبها من الماء وألقاها على رمال الشّاطئ المبلّلة وراح يهتف فرحًا. قال لابنه :

— بواسطة المال الّذي سأحصل عليه من بيع هذه السمكة، سأتمكن من شراء قارب جديد. راقبها، بينما أذهب لإحضار حمار كي ننقلها على متنه.

ما إن ابتعد الأب حتّى بدأت السّمكة في الكلام، وقالت متوسّلة :

— أعدني إلى الماء.

قال الطّفل :

— لا، لن يسامحني أبي إن فعلت ذلك.

إذا أعدتني إلى الماء، أعدك بأن أحقّق لك السّعادة.

— لا أستطيع...

في آخر المطاف، هدّدته السّمكة قائلةً :

— أعدني إلى الماء، وإلّا ستحلّ اللّعنة على أهلك.

كان الصّبيّ سريع التّأثّر، فرضخ لرغبة السّمكة. وعندما غطست السّمكة في الماء مجدّدًا أخذت نفَسًا عميقًا وسبحت مبتعدةً في عرض البحر دون حتّى أن تشكر الطّفل. فحدّث هذا الأخير نفسه قائلًا : « لن يسامحني أبي على ما فعلت، وقد يضربني على ذلك ». وهكذا، ركض الطّفل هاربًا على طول الشاطئ وهو مذعور من مواجهة غضب والده. وفي الأخير تعثّر وسقط تحت تأثير التّعب والعطش. فانطرح على الرّمل بينما كان اللّيل يرخي سدوله. وسرعان ما غطّ في النّوم ولم يستيقظ إلّا في اليوم الموالي وهو يرتجف بفعل نسائم البحر الرّطبة. كان النّهار قد أقبل، فسار الطفل بمحاذاة البحر بعض الوقت، قبل أن يصادف شابًّا سأله عن وجهته الّتي يقصدها، فقصّ عليه الطّفل حكايته ؛ وعندئذ، اقترح عليه الشّابّ :

— لنكن أصدقاء ونسافر سويًّا. أنا يتيم وذاهب إلى أيّ مكانٍ أجد فيه المقام طيّبًا.

أبدى الصّبيّ موافقته، وسار الاثنان عدّة أيام إلى أن بلغا إحدى المدن حيث استأجر الشّابّ متجرًا، ثمّ اشترى خروفًا، وبعد أن سلخه، قطّع اللّحم وعرض القِطع على أطباق كبيرة، ثمّ قال للصّبيّ :

— بع هذا اللّحم، ومن المال الّذي تجنيه، اشترِ خروفًا آخر واستمِرّ في التّجارة على هذا المنوال. أمّا أنا فيجب أن أنصرف الآن، وسأعود بعد أيّام.

انتظر الصّبيّ طيلة النّهار دون أن يحظى بمشترٍ واحد. وكان اللّيل قد حلّ منذ بعض الوقت حينما وطأ رجل عجوز عتبة المتجر أخيرًا واقتنى رطلين من اللّحم، ثمّ سأله :

— هل يمكنك توصيل الطّلب إلى بيتي ؟ أقطن هناك في أعلى هذا الشّارع، قُبالة المسجد مباشرة.

قال الطّفل :

— سأقفل المحلّ بعد ساعة، وبعدها سأوصل الطّلب إليك.

— حسنًا، أنا في انتظارك.

انصرف الرّجل العجوز. ولم يمرّ على الصّبيّ في ذلك اليوم سوى زبون واحد. فقال في سرّه : « من المؤكّد أن عدد الزّبائن سيكون أكبر في الغد ». ثمّ سحب الباب وأولج في القفل المفتاحَ الضّخم الّذي بدا حجمه الكبير غير متناسب مع صغر المحلّ، وأداره ثلاث مرّات.

وإن هي إلّا لحظات حتّى كان يقف أمام بيت زبونه. رفع المدقّ، ثمّ طرق طرقتين خفيفتين على الباب الخشبيّ البنّي

الكبير، فسمع صداهما يرنّ في الدّاخل. واستغرق الرّجل العجوز بعض الوقت كي يفتح، ثمّ قال :

— ادخل، أنا وحيد في البيت. إنّني أدعوك إلى العشاء.

قبل الطّفل الدّعوة، وأمدّه ببعض المساعدة في شوي اللّحم. وخلال العشاء، سأل العجوز ضيفه عن حياته، فروى له الطّفل مغامرته ؛ وعندها قال العجوز :

— يا بنيّ، إنّ مهنة الجزارة لن تجلب لك الثّراء. إن كنت ترغب في الحصول على المال الوفير، فلديّ ما هو أفضل لك.

سأل الطّفل :

— ما هو هذا الشّيء ؟

— اتبعني إلى الإسطبل إن كنت تريد أن تعرف.

كان للرّجل العجوز عشرة حمير، فطلب من الطّفل أن يضع فوق كل حمار صندوقين ويشدّ وثاقهما جيّدًا، ثمّ أضاف :

— سنمضي إلى مكان قريب من أحد الجبال حيث يوجد كنز مدفون تحت الأرض. سنملأ عشرين كيسًا من الذّهب والأحجار الكريمة ونضعها في الصناديق، ثمّ نتقاسمها حينما نعود.

انطلق العجوز والصّبيّ تتبعهما الحمير. كان الوقت ليلًا والجوّ صحوًا. مشَيَا حتّى بزوغ الفجر، وغاصا في إحدى

الغابات، ثمّ حطّا رحالهما في فسحة صغيرة داخلها. وبينما انشغل الصّبيّ بربط الحمير، أسند العجوز ظهره إلى أكبر شجرة من أشجار الصّنوبر النّامية على أطراف الفسحة، وسار خمس خطوات في اتجاه مركزها، توقّفَ، ثمّ انعطف ناحية اليمين بزاوية مقدارها خمسة وأربعون درجة، وتقدّم بخمس خطوات أخرى، تردّد للحظة، ثمّ قرفص وشرع يحفر في الأرض بيديه، وسرعان ما لاح له باب، فأزاح كلّ التّراب الّذي كان يغطّيه، وعند ذاك تلفّظ بعبارة سحريّة لم يفقه الصّبيّ منها شيئًا، فانفتح الباب، وقال العجوز :

— خذ الأكياس واذهب لتملأها.

امتثل الطّفل للأمر، ونزل في الحفرة الرّحبة المضاءة ببريق جواهرها الوفيرة. عبّء الكيس الأوّل بالقطع الذهبيّة والمجوهرات ومرّره إلى العجوز، وفعل الأمر ذاته مع الأكياس الأخرى. وما إن حصل الشّيخ على آخر كيس حتّى تلفّظ بصيغة قصيرة فانغلق الباب على الطّفل الّذي أضحى حبيس هذه الحفرة. أهال الشّيخُ التّرابَ عليها لإخفائها، ثمّ حمّل الأكياس العشرين فوق الحمير وقفل عائدًا إلى بيته.

أخذ الطّفل يصيح غاضبًا منتحبًا، وهو يقول :

— سأموت هنا !

حينما اعتادت عيناه على العتمة، خُيّل له أنّه يرى بصيص نورٍ آتٍ من أعلى القبّة فوق سجنه. كان نورًا خافتًا جدًّا كأنّه سراب، ولكنّه حقيقيّ لأنه يراه بأمّ عينيه. حينذاك، تسلّق الطّفل، وقلبه يخفق بشدّة، تلّة المجوهرات متحسّسًا المكان بيديه، وكلّما كان يقترب من مصدر النّور أكثر، كان الأمل يشرق في نفسه أكثر فأكثر، فسيقوده حتمًا إلى سبيل الخروج من هنا، سبيل الحريّة.

وحفر الصبي بانفعال طيلة ساعات دون توقّف. حفر بأظافره، بأصابعه، بيديه، بذراعيه، بكلّ ما أوتي جسده من قوّة، ذلك الجسد الّذي ما عاد يحسّ الألم. حفر وحفر واستمرّ في الحفر. وبعد ثلاثة أيّام بلياليها تمكّن من الخروج، وعندها، سدّ الحفرة بالحجارة والتّراب. وبعد أن روى ظمأه واغتسل من ماء نبع كان يجري على مقربة منه، جمع بعض التّوت البريّ والتهمه بنهم، ثمّ عاد إلى متجره، فقابلته رائحة اللّحم الفاسد الشّنيعة، فتخلّص منه. ثمّ تناول وجبة شهيّة ودفع ثمنها من القطع الذّهبية الّتي حملها معه، قبل أن يخلد إلى الرّاحة. غطّ الشّابّ في النّوم ما يقرب عن أربعة وعشرين ساعة، ثمّ استيقظ على وقع طَرق الباب. كان الطّارق صديقه الّذي غادره قبل عدّة أيّام. قال له :

— هل كنت نائمًا ؟

وردّ الصبيّ بالإيجاب. فاقترح عليه الشّابّ :

— فلنذهب ونأكل شيئًا، أكاد أموت جوعًا.

وبينما كانا يتناولان الطعام، حدّث الطّفل صديقه بما جرى له، وطلب منه المساعدة في الثّأر من الرّجل العجوز ؛ فقال الشّابّ :

— لا يجب أن نهدر وقتنا فيما لا يفيد، ومن الأجدى أن نقتني بعض الحمير ونمضي لنحمّلها بالذّهب والأحجار الكريمة الّتي سنتقاسمها سويًّا.

قال الصّبيّ :

— أنت محقّ.

اشترى الطّفل بما تبقّى له من قِطع ذهبيّة ستّة حمير وصناديق وأكياس وحبال، ثمّ اتّخذ سبيل الجبل برفقة صديقه، ولمّا وصلا إلى الفسحة داخل الغابة، وسّعا الثقب الّذي خرج عبره الطّفل، ونزلا في الحفرة، وملآ اثنَي عشر كيسًا من الذّهب والأحجار الكريمة، ثمّ حملاها على متن الحمير وسدّا الثّقب ثانيةً.

وإثر ذلك قال الصّبيّ للشّابّ :

— سأعود إلى بيت أهلي. إنّي أدعوك لأعرّفك عليهم. يمكنك الإقامة عندنا إن رغبت في ذلك.

ردّ الشّابّ :

— أشكرك.

شدّ الصّديقان الرّحال سويًّا، وبعد عدّة أيّام من السّفر وصلا إلى المكان الّذي التقيا فيه أوّل مرّة. توقّفا على الشّاطئ، فتناولا بعض الأكل ثمّ نالا قسطًا من الرّاحة. وحينما حان وقت المسير أبلغ الشابُّ الصبيَّ أن رحلته تنتهي هنا. فاستغرب هذا الأخير واستوضح منه الأمر، فقال الشّابّ :

— أَتَذْكر حينما أمسك أبوك سمكة ضخمة، وقمت أنت بإعادتها إلى الماء ؟ حسنٌ، تلك السّمكة هي أنا. سأعود إلى البحر، وتحت الماء، لا فائدة تُرجى من الثّروات ؛ لذا سأترك لك كلّ الحمير والصّناديق وما تحتويه. والآن، انصرف وإيّاك أن تستدير للنّظر إليّ لأنّك عندها ستتحوّل إلى سمكة مثلي.

ظنّ والدا الطّفل أنّهما قد فقدا ابنهما إلى الأبد ؛ ولذلك كانت فرحتهما برؤيته مجدّدًا فرحةً عارمة. وبنى الصّبيّ لهما بيتًا جميلًا بفضل الثّروات الّتي أحضرها، كما اشترى لوالده باخرة كبيرة، فاستغنى عن شبكة الرّمي المخروطيّة، ولم يعد يصطاد إلّا في عرض البحر كما كان يرغب دائمًا. وعاد الطّفل إلى مدرسته واعتنى بدراسته إلى أن صار طبيبًا.

الإسكندر الأكبر
(اليونان القديمة)



ولد الإسكندر الأكبر في مدينة بيلا سنة 356 قبل الميلاد. تتلمذ على يد الفيلسوف « أرسطو ». وكان ملكًا على اليونان ومصر وفارس. توفّي في بابل سنة 323 قبل الميلاد.

حقّق الإسكندر الأكبر الانتصار في الكثير من المعارك، وأضحى ملكًا على إمبراطوريّة شاسعة مترامية الأطراف. كان كثير التّساؤل حول مستقبله، وعلى وجه خاص، سؤالان كانا

يقضّان مضجعه، وهما : هل سيعمّر طويلًا ؟ وهل سيتمكّن من غزو بلدان أخرى وتوسيع إمبراطوريّته أكثر ؟

ذات ليلة، قال الإسكندر في نفسه وقد أصابه الأرق : « إنّ السّحرة يعلمون الغيب، ولا شكّ أنّ لديهم أجوبة لأسئلتي ».

وهكذا قام باستدعائهم إليه في الغد واستشارهم في الأمر، فأجاب السّحرة :

— يا جلالة الملك، إنّ لك قوّة عظيمة، ولكن ما من أحد يستطيع محو ما هو مدوّن في كتاب القَدَر. لقد قرأنا فيه أنّ هناك وسيلة واحدة، وسيلة صعبة، لكي تعمّر ما تشاء من عمر مديد، وتغزو العالم وتستمتع بمجدك.

قال الإسكندر :

— لقد انتصرت في أكبر المعارك، ولا شيء يصعب عليّ. أخبروني بسرعة ماذا قرأتم !

— حسنًا، الوسيلة الوحيدة يا جلالة الملك هي أن تشرب من ماء الفتوّة الّذي سيمكّنك من البقاء شابًّا أبد الدّهر.

— وأين أجد هذا الماء ؟

أعلن السّحرة :

— تجده في عرين تنّين مرعب يسهر على حراسته ولا يغمض له جفنٌ أبدًا. عليك أن تقتله حتّى تحصل

على ماء الفتوّة. ولكن قبل أن تصل إليه يجب أن تمرّ بين جبلين يتلاطمان بمجرد أن يدخل أحد في المضيق الفاصل بينهما. وكم من شخص قويّ أو بائس فقد حياته في خضمّ هذا العناق الجبليّ الرّهيب.

وعلى الفور، أسرج الإسكندر جواده « بوسيفال » الّذي لم يكن يسمح لأحد غير سيّده بامتطائه، كان يجثو على ركبتيه أمامه احترامًا له. كان حيوانًا يتّقد نشاطًا، سريعًا كالبرق، يسبق حتّى ظلّه. قفز الإسكندر على السّرج، وهمز بوسيفال فانطلق في اتّجاه الشّمس. وتمكّن الاثنان من عبور المضيق قبل أن يضمّ الجبلان بعضهما بعضا. وما إن لمح الإسكندر التّنّين حتّى استلّ سيفه وقضى عليه، ثم استحوذ على الزّجاجة الّتي تحوي ماء الفتوّة.

حينما عاد إلى قصره، وضع الزّجاجة على طاولةٍ في غرفته وانصرف إلى قاعة المجلس حيث كان قادة جيشه في انتظاره. وبينما كان في الاجتماع، رأت شقيقته القارورة، ففتحتها وتذوّقت السّائل الثّمين. واعتقدت أنّه ماء عاديّ فأراقته.

لمّا فتح الإسكندر القارورة يريد أن يشرب من ماء الفتوّة، اكتشف أنّها فارغة ؛ فسأل شقيقته عن الأمر، وعلم بأنّها

هي من أفرغها عن جهل. استشاط الإسكندر غضبًا ودعا عليها بأن تتحوّل إلى حوريّة بحر.

وسرعان ما تحقّقت اللّعنة، وتعيّن على المرأة أن تنتقل للعيش في البحر. وإلى يومنا هذا، لا يزال البحّارة، وهم يقطعون البحر الأبيض المتوسط، يلمحون بين الفينة والأخرى في جوف الأمواج حوريّة البحر، أخت الإسكندر، الّتي ندمت أشدّ النّدم على فعلتها.

كانت الحوريّة ما إن ترى سفينة إلّا وتقترب منها لتسأل ركّابها عن شقيقها إن كان حيّا أو مات، وذات مرّة أخبرها أحد البحّارة بأنّه مات منذ وقت طويل، فحزنت حزنًا عميقًا، وضربت البحر بغضب ما أثار عاصفة كادت تُغرق السّفينة.

كان معظم البحّارة يعون الخطر المحدّق بهم إن هم أخبروا الحوريّة بالحقيقة؛ فكانوا يؤثرون الكذب عليها والرّدّ على سؤالها بأنّ الإسكندر حيٌّ ولا يزال يحكم إمبراطوريّته الشّاسعة. وعند ذاك، تسرّ حوريّة البحر، وتشرع في الغناء والعزف على قيثارتها. إلّا أنه من الأفضل أن يمتنع المرء عن سماعها، ذلك أنّها ذات صوت شجيّ ورائع يسحر كل من يصغي إليه، فيُسارع إلى القفز في الأمواج الزّرقاء لينضمّ إليها فلا يُرى له أثر بعد ذلك.

الثّعلب والحمار والذّئب

(اليونان)



غالبًا ما يتّصف الحمار بالعناد، ولكنّه ليس غبيًّا كما يُشاع عنه، وهذا ما سنكتشفه من خلال الحكاية التّالية.

في بلدة تصطبغ بيوتها بالبياض المتناغم مع زرقة البحر الأبيض المتوسّط، كان يعيش حمار رماديّ. ذات يوم وبينما كانَ غافيًا تحتَ ظلّ شجرة زيتون، لمحه ثعلبٌ خرج للبحث عن طعام يسدّ به رمقه. كان الثّعلب يتضوّر جوعًا حتى

كاد يهاجم الحمار دون تمهّل، ولكنّه تريّث وآثر الاختباء خلف أجمة ومراقبة الحمار. كان الحمار ضخمًا وبدا له قويّ البنية ؛ ومن الجليّ أنّ الثّعلب لن يتمكّن من الحمار بمفرده. وهكذا، عزم على التماس المساعدة، فأخذ يجوب الحقول بحثًا عن صديق إلى أن التقى ذئبًا. فقال له :

— لقد وجدت حمارًا يصلح لأن يكون طعامًا في مأدبة فاخرة.

هتف الذّئب إعجابًا :

— يا لها من صدفة رائعة، فأنا لم أذق الزّاد منذ ثلاثة أيّام. آمل ألّا يكون حمارك جلدًا على عظم.

— اطمئن، إنّه حمار سمين جدًّا.

— أرشدني إليه فورًا.

حينما صار الشّريكان على مقربة من المرج حيث كان الحمار يرعى، رأيا مجموعة من الفلّاحين، فقال الذّئب :

— لا يمكننا أكل هذا الحمار في هذا المكان، إنّ في الأمر مخاطرة غير محمودة العواقب.

اقترح الثّعلب :

— لنفكّر في طريقة نكسب بها ثقته ونستدرجه بعيدًا عن المرج.

— أنت من يجب أن يفكّر لنا في أمر ما، فأنت أكثر الحيوانات دهاءً ومكرًا.

أعمل الثّعلب عقله، ثم اهتدى إلى خطّة، وعرضها على الذّئب الّذي وافقه عليها. كانت الخطّة تقضي بأن يُحمل الحمار على قارب ويبحرا به حتّى يتسنّى لهما أكله بهدوء وهم في عرض البحر.

انتظر الشّريكان انصراف المزارعين واقتربا من الحمار. قال له الثعلب :

— نحن في حاجة إليك.

سأل الحمار :

— وفيم تحتاجانني ؟

— نريدك أن ترافقنا إلى جزيرةٍ كلّ أهلها من الحمير. سنُمنع من الرّسوّ هناك دون وجودك معنا. ستكون كالكفيل بالنسبة لنا. هناك، لا يوجد أيّ إنسان، والحمير أحرار في فعل ما يشاؤون.

أردف الذّئب مسترسلًا :

— لا أحد يجبرهم على العمل، ولا أحد يضربهم، وفوق هذا وذاك، العشب هناك في غاية الطّيب والطراوة.

وأضاف الثعلب :

— هذا، فضلًا عن الأُتن الحسناوات.

قال الحمار في إعجاب :

— إنّ ما وصفتماه لي جنّةٌ حقيقيّة. وإنّ فيه ما يغريني بقبول عرضكما، ولكن أودّ أن أعرف ما الّذي تريدان فعله على تلك الجزيرة.

— نحن نخطّط لأن نصبح عمّال نظافة، بحيث كلّما مات أحدٌ من أبناء جنسك نأكله، وهكذا نخلّص الجزيرة من جثته.

هتف الحمار إعجابًا :

— حسنًا، أنا موافق !

قال الذّئب :

سننطلق غدًا مع بزوغ الفجر.

اقتنى الثعلب قاربًا، وأبحر على متنه رفقة شريكه والحمار. وسرعان ما ركبوا الأمواج نحو عرض البحر مبتعدين عن الشاطئ. فجأة، لمح الثّعلب بعض الغمام في الأفق، فقال :

— أعتقد أن عاصفة على وشك أن تهبّ ؛ ربّما يتعيّن علينا الرّجوع.

أجاب الذّئب :

— لن يجدي الأمر نفعًا. فات الأوان. ولكن من باب الحيطة، أقترح أن يعترف كلّ واحد منّا بالذّنوب الّتي اقترفها.

قال الحمار :

— نحتاج إلى قسّ لفعل ذلك.

قال الذّئب زاعمًا :

— لابد أنّك تجهل بأنّني قسّ.

قال الثّعلب بسرعة :

— ابدأ في الاستماع إلى اعترافاتي.

— أخبرني عن ذنوبك يا بنيّ.

— الذّنب الوحيد الّذي ارتكبته هو سرقتي لبعض الدّجاج والأرانب بين الفينة والأخرى.

— إن ذنبك صغير أيّها الثّعلب، فقد اضطررت إلى ذلك حتّى لا تموت جوعًا ؛ وعليه، ذنبك مغفور.

— وأنت يا رفيقي الحمار، حدّثني عن الذّنوب الّتي ارتكبتها.

قال الحمار :

— أنا، ذات يوم كنت أنقل خضارًا إلى السّوق ليبيعها سيّدي هناك. كان الحِمْل ثقيلًا وشعرت بالتّعب، فاستدرت والتقمت ورقة خسّ وأكلتها.

علّق الذّئب بنبرة حازمة :

— إن ما فعلته خطأ جسيم جدًّا.

وزاد الثّعلب :

— إنّها جريمة تستحقّ عليها العقاب الشّديد.

أضاف الذّئب :

— صدقت، وعقابًا لك سنأكلك.

اعترض الحمار قائلًا :

— ولكنّي أقسم أنّني تبت منذ ذلك اليوم.

زمجر الذّئب :

— ليس لديك أيّ عذر، يجب أن نأكلك.

قال الحمار :

— حسنًا، ولكن قبل ذلك، أودّ أن أَطَّلِع على وصيّة والدي، فإلى الآن لم أتمكّن من الاطّلاع عليها لأنّها مكتوبة على أحد حوافري الخلفيّة. فهلاّ تفضّلتما بقراءتها لي، وبعدها يمكنكما أكلي.

قال الذّئب للثّعلب :

— تعال وساعدني.

ووقف الاثنان خلف الحمار وانحنيا لقراءة الوصيّة. حينئذ، أرسل الحمار قائمتيه الخلفيتين بكلّ قوّة، فرفس الثّعلبَ والذّئب رفسة عنيفة قذفت بهما في البحر. ولم يكن أيٌّ منهما يجيد السّباحة، فأخذا يغرقان، فيما انعطف الحمار بالقارب وقفل عائدًا إلى اليابسة.

الأمير والدّمية

(جزيرة كريت)



في أحيانٍ كثيرة، تكونُ قصص الحبّ بين الأمراء سببًا للتّصالح بين شعبينِ متخاصمين.

حينما يهتاج البحر الأبيض المتوسّط يصير قاسيًا لا يرحم. في عرض البحر المحيط بجزيرة كريت، فقدت امرأةٌ زوجها الصّيّاد، ثمّ لم يلبث البحر أن التهم بناتها الثّلاث بينما كنّ يقطعنه متوجّهات من الجزيرة إلى بلدة على ساحل القارّة الأوروبيّة في زيارةٍ لخالتهنّ.

غرقت الأم البائسة في الجنون وما من أحد يعزّيها. ولكن، بعد أسابيع معدودات، تمكنّت من استعادة رباطة جأشها. اقتنت بعض الطّحين ومزجته بالماء لتحصل على عجين. عركت العجين مدّة طويلة ثمّ تركته جانبًا ليرتاح، وبعد بعض الوقت شكّلت باستخدام هذا العجين ثلاث دُمًى كبيرة، وألبستها أثوابًا جميلة نسجتها بيديها، وقرّرت أن تعتبرها كبناتها.

كانت المرأة قد وضعت على طرف نافذة بيتها حوضًا كبيرًا يحوي أزهار الخزامى. ذات يوم، أجلست إحدى الدّمى بالقرب من تلك الأزهار، وقبل أن تنصرف إلى أشغالها قالت لها :

— احرسي هذه النّبتة، واحذري أن يقطفها أحد ما.

بعد برهة، مرّ ابن الملك بمحاذاة البيت فاجتذبه جمال الدمية الّتي اعتقدها امرأةً حيّة ؛ اقترب منها وكلّمها، وبما أنّها لم تجبه، قطف بعض الأزهار وشكّل منها باقة. ثمّ انصرف بعد أن دسّ حفنة من القطع الذهبية في جيب مئزر الدمية.

وحينما اكتشفت المرأة أنّ أحدهم قد مسّ أزهارها، تملّكها الغضب الشّديد، فقالت للدّمية موبّخة إيّاها :

— إنّك لم تحرسي أزهاري.

وألقت بها على الأرض فتحطّمت إلى قطع، دون أن تدرك أنّ قيمة القطع الذّهبيّة أكبر من قيمة الأزهار المقطوفة بألف مرّة.

في اليوم الموالي، أجلست المرأة الدّمية الثّانية بقرب حوض الخزامى، وأعطتها نفس التّعليمات. ومرّ الأمير بالمكان ثانيةً فتوقّف وتحدّث إلى الدّمية. لقد أُعجب بجمالها أكثر من سابقتها. التقط زهرتين وانصرف بعد أن ترك لها بعض القطع الذّهبيّة. وحينما رأت المرأة بأنّ زهورها قد مُسّت مرّة أخرى، اغتاظت غيظًا شديدًا، فضربت الدّمية ضربةً حطّمتها إلى أشلاء. ونفس هذا المشهد تكرّر مع الدّمية الثّالثة بعدما أجلستها المرأة على طرف النّافذة. وهكذا، بعد أن فقدت المرأة بناتها، وجدت نفسها وحيدةً دون دُماها.

غير أنّ الأمير كان قد وقع في حبّ الدّمى فدأب على المرور أمام البيت مرارًا وتكرارًا وهو يشعر بالحسرة لعدم رؤيتهنّ. لقد كان حبّه كبيرًا ما أدّى به في الأخير إلى السّقوط مريضًا طريح الفِراش. واستدعى الملك أمهر الأطبّاء الّذين لم يستطيعوا شيئًا لابنه، كما استدعى المشعوذين والسّحرة للنّظر في مُصابه، غير أنّ حالة الأمير ساءت وامتنع عن الأكل أو الكلام. استبدّ القلق بالملك، وألحّ على ابنه في السّؤال عمّا أصابه. وفي نهاية المطاف، كشف الأمير لأبيه عن السّرّ

وراء مرضه. وعلى الفور، أرسل الملك مبعوثًا إلى بيت المرأة يأمرها بأن تحضر ابنتها إلى القصر لكي يتزوّجها الأمير.

قالت المرأة للمبعوث :

— ليس لديّ بنات. كانت لي ثلاث بنات في السّابق، ولكنّ البحر خطفهنّ منّي.

ولكنّ المبعوث رفض أن يصدّقها، وقال :

— ليس لديك خيار، أحضري ابنتك غدًا إلى القصر، وإلّا ستُسجنين.

قالت المرأة :

— حسنًا، سأفعل.

ما إن انصرف مبعوث الملك حتّى صنعت المرأة دمية باستخدام الطّحين والماء، وخاطت لها ثيابًا، واشتغلت اللّيل بطوله كي تجعلها تبدو كفتاة حقيقيّة. وعندما فرغت من عملها، كانت تباشير الصباح قد بدأت في البزوغ. نامت المرأة بعض السّاعات، ثمّ قصدت المرفأ مُصطحبة الدّمية معها، وهناك، طلبت من أحد الصّيّادين أن يأخذهما إلى قصر الملك عبر البحر. غادر المركب المرفأ، وفي الطّريق غافلت المرأة الصّيّاد ودفعت الدّمية إلى الماء، وراحت تنتحب باكيةً :

– ابنتي المسكينة سقطت في الماء، إنّها تغرق.

انعطف الصّيّاد بالمركب في محاولة لإنقاذ الدّمية ولكن دون جدوى، فقد غاصت سريعًا في قاع البحر. وبعد بعض الوقت، أكمل المركب مسيره. وما إن علم الأمير بالخبر الحزين حتّى تملّكه اليأس والضّيق ؛ فأمر الملك أمهر الغوّاصين في المملكة بالسّعي إلى البحث عن الفتاة في عمق البحر، ولكن لا أحد تمكّن من العثور عليها. وكان لصيّاد شاب دلفينٌ صديقٌ فطلب منه المساعدة.

تشبّث الشّابّ بزعانف الدّلفين الّذي سحبه تحت الماء، وبعد أن توغّلا في مملكة الأعماق، عبرا مدينة الطحالب، ومرّا بمحاذاة مدينة الرّمال، ثمّ مدينة الصخور، قبل أن يصلا أمام قصر الشّعاب المرجانيّة لصاحبته ملكة البحر. فصاح الصّيّاد الصّغير :

– يا ملكة البحر، إن ابن الملك يبحث عن الفتاة الجميلة الّتي سقطت في الماء البارحة صباحا لكي يتزوّجها.

وبعدها صعد الصّيّاد والدّلفين إلى سطح الماء، وما كادا يطآن رمال الشّاطئ حتّى اهتاجت الأمواج. وبرزت حوريّة صغيرة من بين كومة من الزّبد، وصاحت قائلةً :

– ها أنا ذي !

لم تكن هي الدّمية الّتي سقطت من المركب. وبدلًا عنها، أرسلت ملكة البحر ابنتها ذات الجمال الأخّاذ. عندما حضرت الحورية إلى القصر، قال الملك :

— أفهم يا بنيّ لماذا فقدت رشدك بسبب هذه الفتاة الفاتنة.

كان الأمير سعيدًا، ووجد خطيبته في غاية الحسن والجمال، حتى أنّه لم يعتب عليها حينما أخبرته عمّن تكون. لم يهتمّ كثيرًا من كونها ليست الفتاة الّتي رآها قرب حوض الخزامى، ذلك أن هذه كانت أجمل من تلك.

بَيْدَ أنّ الملك غضب أشدّ الغضب بعدما علم بالهويّة الحقيقيّة لخطيبة الأمير، فقبل عشر سنوات، شبّت حربٌ بين مملكته ومملكة البحر، ومذّاك لم ينعقد بينهما صلح أو سلام.

ولكن، بعد مفاوضات يسيرة، اتّفق الجانبان على إقامة الزّفاف، ودامت الأفراح عشرة أيّام بلياليها. وكانت هذه بداية تعاون مثمر نشأ بين المملكتين.

البحّارة التّيرانيّون

(روما القديمة)



اقتُبست هذه الحكاية من قصيدة تحوّلات للشّاعر اللّاتيني أوفيد الّذي وُلد في سلمونا سنة 43 قبل الميلاد.

رفض الإمبراطور « بنتيوس » أن يخضع لعبادة « بوخوس »، بينما كان رعاياه يحتفون بهذا الأخير على أبواب مدينة طيبة إلهً جديدًا لهم. وأمر بنتيوس جنوده باعتقال بوخوس، غير أنهم عادوا من دونه، فسألهم :

— هل وجدتموه ؟

— لا ! ولكنّنا قبضنا على أحد مرافقيه الّذي يشتغل كاهنًا عنده.

وقدّموا أمامه رجلًا يداه مقيّدتان إلى ظهره، فقال له :

— إنّها نهايتك، وسيكون موتك عبرة لكل من يعبد بوخوس. ولكن، قبل أن أقتلك، أودّ أن أعرف من تكون، ولماذا تحتفي بهذا الإله الجديد.

أجاب السّجين :

— أُدعى « أسيتاس ». وغادرت بلاد التّيرانيين لألتحق بالرّكب المقدّس للإله بوخوس.

أهلي يعيشون في ظروف مزرية، ولم يترك لي والدي حقولًا ولا قطعان ماشية، لأنّه ببساطة لم يكن يملك شيئًا من ذلك. دأب والدي على اصطياد السّمك بواسطة شباكه وصنانيره، فيسحبها من الماء وهي ترتعش وتتخبّط، ثمّ يبيعها ويؤمّن لنا بثمنها لقمة عيشنا. كانت مهنته كل ثروته، فعلّمني إيّاها. كان يقول لي : « خذ، هذه الثّروة الوحيدة الّتي يمكنني تقديمها لك ». وبعد موته، لم يترك لي إلّا مياه « بحرنا ». وكي لا أبقى مسمّرًا على نفس الصخور دائمًا ، تعلّمت قيادة المركب، والإبحار عبر الاهتداء بالأجرام السّماوية كمجموعة نجوم جدي ألينوس والقلائص والدّب، ثمّ عرفت مواقيت

وأماكن هبوب الرّياح والموانئ المواتية للمراكب. وذات يوم خرجت من بلدتي « ليدي »، وأبحرت جنوبًا نحو مدينة « ديلوس »، وفي اللّيل توقّفت وطاقم مركبي على سواحل مدينة « خيوس ». وفي صباح الغد، استيقظت بينما كانت الشّمس تلامس الأفق بأشعّتها الأرجوانيّة، وطلبت من رجالي جلب بعض الماء العذب من نبع قريب من الشّاطئ الّذي قضينا فيه ليلتنا، ثمّ اعتليت قمّة إحدى التّلال، وحاولت أن أتنبّأ بما ستكون عليه حالة الريح. تركت لأفراد الطاقم الوقت للاغتسال وملء الجرار قبل أن أصيح فيهم بأن يعودوا إلى المركب، فأقبل البحّار « أوفلتيس » وقال : « ها نحن قد جئنا ». كان يجرّ بيده طفلًا يترنّح في مشيته وهو يلحقه بصعوبة. شرح أوفلتيس بأنّ أفراد الطّاقم وجدوه نائمًا قرب النّبع. تفحّصت الطّفل فاكتشفت فورًا أنّ صفاته ليست صفات بشر، فقلت في سرّي باستغراب : « إنّ جسد هذا الطّفل يخفي إلهً بداخله »، ثمّ توّجهت إلى الطّفل مخاطبًا، وقلت : « كن مفيدًا وساعدنا على الوصول إلى ميناء جيد ». عندها قال « ديكتوس » وكان أكثر رجالي رشاقةً، ذاك الّذي يتسلّق أعلى السّواري بكلّ سهولة، قال : « كُفّ عن التّوسّل إليه من أجلنا »، ثمّ انضمّ إلى رأيه « ليبيس » و « ميلونثوس »،

ليتبعهما « ألسيميدون » و « إيبوبي » ذوا الصّوت المتناغم مع إيقاعات المجاديف والّذي يشجّعون به البحّارة على التّجديف بقوّة. وسرعان ما نادى الجميع بهذا الرّأي أيضًا بعد أن أعمى الطّمع بصائرهم ؛ ذلك أنّ أفراد الطّاقم كانوا ينوون بيع الطّفل في سوق العبيد والحصول من ورائه على مبلغ ضخم. تملّكني الغضب، وصرخت : « لا ! لن ألطّخ سمعة هذا المركب بحملكم عليه أيها الأنجاس، لن أقبل بهذا أبدًا، وأنا القائد المسؤول هنا. » وهكذا، حاولت منع أفراد الطّاقم من الصّعود على متن المركب، وحينئذ استشاط « ليكاباس » غضبًا، وكان شخصًا منفيًّا طُرد من مسقط رأسه عقابًا له على ارتكابه جريمة قتل شنيعة. أطبق ليكاباس على عنقي محاولًا خنقي فيما كان الرّجال يأخذون أماكنهم على المركب. قاومته وتمكّنت من دفعه عنّي، ولكن كان المركب قد ابتعد عن الشّاطئ. أخيرًا تدخّل بوخوس، فهو الإله الّذي كان مختبئًا داخل جسد الطّفل، وقال : « أين تأخذونني أيّها البحّارة ؟ » وأجابه « بروري » : « لا تخشَ شيئًا يا صغيري، سنقلّك أينما تريد »، وردّد البحّارة الآخرون القول نفسه في استهزاء. قال بوخوس : « ما المجد الذي ستحقّقونه من وراء خداع طفل صغير مثلي واستغلال ضعفه ؟ ».

والآن، وأنا أقسم بأن قصّتي حقيقية، جمد المركب بغتة في مكانه على سطح الماء، في حين كان البحّارة يجتهدون في ضرب المياه بمجاديفهم. وبعدها نشروا الأشرعة، ولكنّ السّفينة لم تحرّك ساكنًا، وبرزت سيقان نبات اللّبلاب، كانت تنمو بسرعة، وانعقدت على المجاديف، وأخذت تتلوّى وتتعرّج كالثّعبان حتّى اكتسحت الباخرة كلّها. راح بخوس، وقد غطّت عناقيد العنب جبهته، يلوّح برمحه، وهدّدت الأوشاق والفهود المرقّطة البحّارة المرعوبين وحاصرتهم من كلّ جانب. كان « ميدون » أوّل من تغيّرت هيئته، فتلوّنت بشرته باللّون الرّماديّ وتقوّس ظهره، فبادره ليكاباس قائلًا : « ولكن، ماذا جرى لك ؟ »، وفيما هو يتحدّث، كان أنفه ينعقف وفمه يكبر وساقاه تتحولّان إلى ذنب يشبه المنجل. أمّا ليبيس فقد رأى بأمّ عينه ذراعاه ويداه تُضمران قبل أن تتحوّلا إلى زعانف. لقد تحوّلوا جميعهم إلى دلافين ثمّ قفزوا في البحر بين الأمواج الزّرقاء، وبقيت وحيدًا على السّفينة بعدما كنّا عشرين رجلًا. كان جسدي متجمّدًا من شدّة البرد، أرتجف والبلل يغمرني. طمأنني الإله بوخوس قائلًا : « لا تخف، فلا أريد بك أيّ سوء. كلّ ما أطلبه منك هو أن تقودني إلى جزيرة ناكسوس ». وحينما وصلنا إلى تلك الجزيرة، قرّرت أن أهب نفسي لخدمة هذا الإله.

وهنا قال بنتيوس :

— لقد أصغيت لحديثك المطوّل فقط لأنّني صبور. ولكنّ كلامك لم يقنعني ؛ ولذا أحكم عليك بالعذاب حتّى الموت. أيّها الحرس، خذوه.

وعلى الفور، قُيّد « أسيتاس » التّيرانيّ ووُضع في السّجن. وبينما كان الجلّادون يهيّئون أدوات التّعذيب من حديدٍ ونار، انفتحت أبواب السّجن وانفكّت قيوده، فتمكّن من الهرب.

حينما علم بنتيوس بفراره، انطلق بمفرده في ملاحقته. فهاجمه أنصار بوخوس وقتلوه. وهكذا، راح هؤلاء يحتفون ببوخوس، إلههم الجديد، عن طريق تقديم البخور وتشريف معبده المقدّس.

الميّت الشّاكر للجميل

(إيطاليا)



أبدًا، لن يضيع العمل الخيّر سُدًى.

كان لأحد التّجّار الأثرياء ابن شابّ، فقرّر أن يعلّمه أصول التّجارة. وذات يوم أراد أن يضعه قيد التّجربة، فاستأجر سفينة وحمّلها بالبضائع. وقال له :

— ستذهب إلى الضّفّة الأخرى من البحر الأبيض المتوسّط وتبيع هذه الشّحنة، على أن تُحصّل أقصى ربح ممكن.

عبرت السّفينة البحر بسلام دون حوادث. ومكث ابن التّاجر أسابيع عديدة في المرفأ الّذي رسا عليه، قبل أن يعثر على

مشترين قبلوا بالسّعر الّذي طلبه. وعندها قرّر، وهو سعيد بما حقّق، أن ينال أيّامًا من الرّاحة قبل أن يتّخذ سبيل العودة إلى بلدته. وبعد أن تجوّل في المدينة المجاورة للمرفأ، رغب في زيارة الأرياف المحيطة بها، فتوجّه صوب باب الخروج الرئيسيّ للمدينة، وعبر إلى الجانب الآخر من السّور الّذي يطوّقها من كلّ جانب. وهناك، رأى مشهدًا أصابه بصدمة عنيفة. رأى جثّةً مُمرغّة في التّراب تنهشها الكلاب المتحلّقة حولها. التقط الشّابّ بعض الحجارة ورمى بها الكلاب فهربت. وجلس بجانب الجثة يترقّب. واستفهم مِن أوّل شخص يمرّ بالمكان عن أمر ما شاهد، فعلم منه أنّ كلّ ميّت في هذه المدينة لم يدفع ديونه تُلقى جثّته فريسة للحيوانات. عندها، تولّى الشّابّ دفع ديون ذلك المسكين، ودفنه دفنًا كريمًا، ثمّ ركب سفينته وقفل عائدًا إلى بلده.

سُرّ والده من رؤيته عائدًا بصحّة وسلامة، وسأله :

— إذن، هل كان ربحك وفيرًا من بيع بضائعك ؟

أجاب الابن :

— أجل، ولكنّني لم أعد بكامل المال.

وقصّ عليه ما حدث. فأجاب الأب :

— يا بنيّ، أرى أنّ لك قلبًا طيّبًا، وهذه صفة حميدة، لكنّها لا تنفع في التّجارة. ومع ذلك، أسامحك هذه المرّة.

بعد مُضيّ عدّة أشهر، استأجر التّاجر سفينة أخرى وعبّأها بالسّلع والبضائع الكثيرة، ثمّ عهد بها إلى ابنه وأرسله إلى بلد آخر من بلدان ساحل البحر الأبيض المتوسّط. كان الفصل شتاءً، واجتاحت عاصفة هوجاء السّفينة فكادت تغرقها، ومع ذلك تمكّنت من الوصول إلى الميناء المنشود.

باع الشابّ حمولته بأفضل سعر ممكن. ثمّ، كما في المرة الأولى، أخذ أيّامًا من الرّاحة وعرّج على المدينة يزورها، ولم يكد يصل إلى ساحتها الرّئيسيّة حتّى لمح حشدًا من النّاس في هرج ومرج، فاقترب منهم. لقد كان سوق العبيد حيث عُرض للبيع رجالٌ ونساءٌ وأطفال من كلّ الأجناس والأعراق. رأى الشّابّ فتاةً جميلةً ذات بشرة فاتحة وحولها تجّار أفارقة عجائز يتنافسون في المزايدة بثمنها للظّفر بها.

كانت الفتاة المسكينة باكيةً، فَرَقَّ لها قلب الشّابّ، وعرض مبلغًا ضخمًا ثمنًا لها فكسب المزايدة من الآخرين. دفع المال وانصرف مع الفتاة تحت أنظار التّجّار الأفارقة الحاقدين.

جرت رحلة العودة في أجواء مناخية هادئة. وعندما حلّ الفتى ببيت والده، روى له ما فعل ؛ فاغتاظ الأب غيظًا شديدًا وطرد ابنه مع الأَمَة الشّابّة.

سار الاثنان على أقدامهما إلى أن استقر بهما المقام في مدينة ساحليّة أخرى، وهناك تزوّجا واشتغلا كأجيرين

في إحدى السبخات الملحيّة. وكثيرًا ما كان الزّوج يسأل زوجته عن ماضيها ووالديها وبلدها الأصليّ، فكانت كلّ مرّة تردّ بالجواب ذاته قائلةً : « لقد اختُطِفت، ثمّ باعوني » دون أن تضيف أيّ تفاصيل.

بعد انقضاء ثلاث سنوات، رُزق الزّوجان بصبيّ، وعلم الجدّ بخبره فاغتنم هذه المناسبة السّعيدة ليطلب من ابنه العودة رفقة زوجته وطفلهما، بعد أن ندم على طرده. وأمّن لهما الإقامة في بيت صغير قريب من منزله.

وقرّر الجد بعد بضعة أسابيع أن يضع ابنه في الاختبار مرّة أخرى، وعهد إليه بسفينة ثالثة محمّلة بالبضائع.

أشارت المرأة على زوجها أن لا يذهب في تجارته إلى البلاد الّتي أرادها أبوه، وإنّما يمضي إلى البلاد التي تدلّه هي عليها. وأضافت :

— ابحث عن رسّام يرسم لنا صوَرًا نحن الثّلاثة، وعلّق الصُّوَر في مقدّمة السّفينة بحيث تكون ظاهرة للعيان.

امتثل الرّجل لنصائح زوجته. وحينما حلّ بالبلاد المنشودة، شاهد بعض أقارب الملك صورة الفتاة فتعرّفوا عليها. واستُدعي التّاجر إلى قصر الملك الّذي سأله :

— لمن الصّوَر الثّلاثة المعلّقة على مقدّمة سفينتك ؟

— إنّها صُوَري أنا وزوجتي وطفلي.

— وما البلد الّذي تنحدر منه زوجتك ؟

قال الرّجل :

— لا أدري يا جلالة الملك.

ثم راح يقصّ عليه حكاية لقائه مع زوجته. وعند انتهائه قال الملك :

— هذا يعني أنّك تزوّجت من ابنتي.

— ابنتك !

— أجل !

وأراه الملك صورةً لابنته، فتعرّف الزّوج عليها فورًا، وقال :

— إنّها زوجتي فعلًا !

— أرجوك أن تحضر لي ابنتي وحفيدي الّذي أتوق لرؤيته.

ووافق الزّوج على تلبية رجائه. اشترى الملك كلّ ما كان معه من سلع كي يتمكّن من الذّهاب سريعًا لإحضارهما.

كان للملك ابن أخ يعيش في القصر، وقد وُعد بأن تكون الأميرة زوجةً له. أعرب ابن الأخ هذا عن رغبته في مرافقة الزّوج في رحلته، فوافق هذا الأخير دون أن يساوره شكّ في أنّ هذا القريب يضمر له الغيرة ويخطّط للتخلّص منه. وهكذا، انطلقا سويًّا بحيث بذل القريب جهده لربط صداقة

مع الزّوج. ولأنّ الرّياح كانت مواتية، فقد وصلت السّفينة إلى وجهتها في وقت قصير.

كان والد الزوج في الميناء لقضاء بعض أشغاله عندما رست السّفينة هناك، فهنّأ ابنه على بيع الحمولة كلّها. كما سُرّت الأميرة سرورًا عظيمًا بلقاء زوجها ثانيةً، ولكنّ الاستياء غمرها من رؤية ابن عمّها، وتمنّت أن تسافر إلى والدها الملك بسرعة لأنّها كانت تتوق لأن يرى طفلها.

على الفور، قام أب الزّوج، الّذي كانت التّجارة همّه الوحيد، باستئجار سفينة وجهّزها بالبضائع المتنوّعة، ثمّ عهد بها إلى ابنه. انطلق الزّوجان والطّفل وابن العمّ على متن السّفينة. وأثناء إبحارهم، داهمتهم عاصفة. في ذلك اليوم، أظلمت السّماء بغتة في آخر الظّهيرة واهتاج البحر. فيما كانت الأميرة تداعب صغيرها في المقصورة المخصّصة للصّبيّ، وزوجها يتجاذب أطراف الحديث مع ابن عمّها على ظهر المركب، بدأت السّفينة في الاهتزاز، وكانت الغيوم كبيرةً قاتمة بحيث حجبت أشعّة الشّمس الّتي كانت تسطع على الميناء قبل لحظات قليلة فقط، وبدا كما لو أنّ اللّيل قد خيّم. انتهز القريب الجوّ المعتم ليدفع الزّوج إلى البحر، فلم ير أيّ بحّار ما حدث. وانتظر وقتًا طويلًا قبل أن ينذر الآخرين بوقوع الحادث رافعًا عقيرته بالصّياح :

— هناك رجل في الماء ! رجل في الماء !

ولكن لم يُعثر للزّوج على أثر.

عند عودة السّفينة، دخلت العائلة المالكة في حداد. ولأنّ زوجها قد مات، عزمت الأميرة على البقاء في بلدها. باعت حمولة البضائع وعهدت بالباخرة والمال لرجل ثقة كي يسلّمهما إلى والد زوجها.

لم ينتظر ابن العمّ طويلًا حتّى ذهب يطلب يد الأميرة للزّواج، فرفضت في بادئ الأمر، ثمّ انتهى بها الأمر أن رضخت لتوسّلات والدها المتكرّرة، بعد أن تمكّن ابن عمّها من استمالته إلى صفّه. وهكذا، بدأت التّحضيرات للاحتفال بالزّفاف.

لكنّ الزّوج المسكين كان قد نجا من الموت. فبعد أن حمله التّيّار، جنح إلى جزيرة صغيرة مهجورة، وأخذ يقتات من جمع المحار وقطف الثّمار البرّيّة. وبعد مرور بضعة أسابيع، لمح مركبًا متواضعًا آتيًا نحوه، وكان على متنه رجل في غاية الشّحوب والهزال. قال له الرّجل :

— إنّ الجميع يعتقدونك ميّتًا، حتّى أنّ الملك يوشك على عقد قران زوجتك مع ابن أخيه. يجب أن تسرع في العودة لمنع حدوث ذلك. اصعد على مركبي، فلا وقت لنضيّعه.

خلال الرّحلة، راح الغريق يفكّر في كيفية شكر هذا الرجل على صنيعه. وقال له :

سأمنحك المكافأة الّتي تطلبها.

أجابه الرّجل :

— سوف أذكر كلامك هذا.

وصل الرّجلان بسرعة فائقة إلى المرفأ حيث كان الزّوج قد رسا قبل بضعة أشهر بالسّفينة المزيّنة بالصّور الثّلاث. شكر الزّوجُ الرّجلَ الّذي أحسن إليه وهو يشدّ على يده بحرارة، ثم توجّه إلى القصر الملكيّ. كانت ثيابه في حالة يرثى لها، ما جعل الحرّاس يمنعونه من الدّخول، فاحتجّ عليهم بشدّة وأصرّ على رؤية الملك، وإذا بأحدهم يلاحظ وجود وجهٍ للشّبه بين هذا الرّجل وزوج الأميرة. فاقتيد عند الملك الّذي سرعان ما تعرّف عليه. وسأله :

— كيف استطعت النّجاة من الغرق ؟!

روى زوج الأميرة على مسامع الملك كلّ ما حدث له ؛ فأمر الملك فورًا بإلقاء القبض على ابن أخيه وسجنه، ثمّ نظّم حفلًا بهيجًا احتفاءً بعودة صهره.

بعد أسابيع قليلة من ذلك، أقبل على القصر الملكيّ الرّجلُ الّذي أنقذ زوج الأميرة، وقال له :

— جئت لأطالب بمكافأتي. لقد وعدتَ بأن تعطيني ما أريد. حسنًا، أريدك أن تمنحني طفلك.

قال الأب متعجّبًا :

— مستحيل، اختر أيّ شيء غير هذا !

قال الرّجل :

— لا، لا أريد غير طفلك. ولكن، بما أنّك محتار في قبول الأمر، أقبل بأن نقطّعه إلى نصفين، ويأخذ كلّ واحد منّا شطرًا.

— لا أبدًا، بل خذه بأكمله.

أمسك الرّجل الطّفل من يده ومشى صوب الباب، ثمّ استدار ورجع إلى الأب، وقال له :

— ها هو ابنك أُعيده إليك. وما كنت أريد إلّا أن أمتحنك. أنا هو الرّجل الّذي دفنتَه بعد أن دفعت ديونه. لقد جنّبتني الخزي والعار، وفي مقابل ذلك، أعدتك إلى أسرتك. وهكذا، أبيّن لك أنّ العمل الخيّر لا يضيع سُدًى أبدًا.

ثمّ اختفى الرّجل دون أن يمهل الأب وقتًا للرّدّ عليه.

أَكَلَةُ الكلمات

(قبرص)



متى حُرم المرء من كلّ شيء، تبقى له دائمًا الكلمات.

كان خمسة صيّادين يعيشون في قرية صغيرة من قرى جزيرةٍ في البحر الأبيض المتوسّط. كانوا أصدقاء يتعارفون منذ الطّفولة، ويتشاركون العمل على نفس الباخرة.

في تلك السّنة، قلّ السّمك في البحر، فبات الصّيّادون الخمسة يعودون إلى بيوتهم بشباكٍ خاوية. على الغداء، كان عليهم أن يقنَعوا بقطعة خبزٍ وبعض حبّات الزّيتون.

ويمضغون الطّعام القليل الّذي معهم أطول فترة ممكنة إيهامًا لأنفسهم أنّ بين يديهم وجبة دسمة.

ذات يوم، أخذ أحد الصّيّادين يروي لرفاقه عمّا جرى معه في أمسيته السّابقة. وقال :

— كما لا يخفى عليكم، زوجتي طبّاخة ماهرة، وتُجيد الكثير من الوصفات، كلّ وصفة أفضل من الأخرى. البارحة مساءً، استخدمت إحدى وصفاتها، الّتي لا يعلم سرّها إلّا هي، في تحضير طبق دجاج بالطّماطم. كان غايةً في اللّذّة، حتّى أنّني اغترفت منه ثلاثة صحون. يكفي أن أتحدّث عنه فيسيل اللّعاب في فمي.

كان الرّجال الأربعة الآخرون يحدّقون في بعضهم البعض دون أن يفقهوا شيئًا. كيف تمكّن صديقهم من الحصول على الدّجاج، في حين أنّ الصّيد شحيح ؟

في اليوم التّالي، وحينما حلّ موعد الغداء، صرّح صديقهم عن عدم إحساسه بالجوع. وأضاف :

— بالأمس، طبخت زوجتي أرنبًا بالصّلصة إلى جانب عصيدة من دقيق الذّرة. لقد أكلت كثيرًا حتّى أنّني لا أستطيع اليوم وضع أيّ شيء في فمي.

تساءل الصّيّادون الآخرون فيما بينهم مرّة أخرى كيف تمكّن صديقهم من شراء أرنب، بينما الشّباك خاوية على الدّوام ؟

ودأب « غيوسيبي » على إخبار أصدقائه كلّ يوم بما أكل على العشاء في اللّيلة السّابقة. حدّثهم عن الدواجن السّمينة، والأرانب الضّخمة، والكباش المشويّة، ولحم البقر المطبوخ مطوّلًا على نار هادئة. وبعد شهر، ما عاد الرّجال الأربعة يطيقون صبرًا، وأخبروا زوجاتهنّ عمّا حدث، فقلن لهم في استغراب :

— ولكن ما العمل للحصول على كلّ هذا، ونحن نوشك على الموت جوعًا ؟

وقتئذ، فكّرت النّسوة في زيارة زوجة غيوسيبي. وذات ظهيرة، ذهبن إليها وفي نيّتهنّ معرفة المزيد عن الحكاية. سُرّت زوجة غيوسيبي بزيارتهنّ واستقبلتهنّ أحسن استقبال. وبعد أن تبادلن أطراف الحديث حول القيل والقال في القرية، فتحن الموضوع الّذي شغل بالهنّ، فسألنها :

— وما هو الطّبق اللّذيذ الّذي ستحضّرينه للعشاء في هذا المساء ؟

على الفور، شرعت زوجة غيوسيبي في النّحيب، وقالت :

— لا أملك في البيت فلسًا واحدًا، ولم أوقد نارًا منذ شهر.

— ولكن، ماذا تأكلون إذن ؟

أجابت باكية :

– ما تتصدّق به أمّي عليّ.

قالت الأخريات :

– آه ! يا مسكينة، الحياة تعيسة جدًّا حينما تخلو شباك أزواجنا من الصّيد.

مع عودتهنّ إلى بيوتهنّ، أخبرت النّسوة أزواجهنّ أنّ النّار في بيت غيوسيبي لم توقد منذ شهر. ولمّا حان وقت الغداء على المركب في اليوم التّالي، خاطب أحد الصّيّادين غيوسيبي قائلًا :

– أخبرنا عمّا أكلت البارحة مساءً.

– حسنًا، لقد كان الطّعام أطيب من المعتاد...

فقاطعه أصدقاؤه الأربعة، وقالوا :

– أكاذيب أخرى ! لقد مرّ شهر وأنت تحدّثنا عن الدّواجن واللّحوم الشّهيّة، بينما لم توقد زوجتك نارًا في البيت منذ أمد طويل.

شعر غيوسيبي بالخجل لاكتشاف أمره، فطأطأ رأسه، واغرورقت عيناه بالدموع، ثمّ قال :

– إن كنت قد كذبت عليكم، فلأنّي كنت أحلم بما طاب ولذّ من المأكولات في حين لم أكن أملك شيئًا، حتّى أنّني تقريبًا صدّقت كل ما أخبرتكم به ؛ وهكذا، كنت أحسّ نفسي أقلّ بؤسًا.

— إنّنا لا نلومك، بل نتفهّم تصرّفك لأنّنا نعاني شحّ الطّعام أيضًا.

في النّهاية، اتّفق الصّيّادون الخمسة على أن يتناوبوا في الحديث عمّا لم يَحْظوا بأكله في الأمسية السّابقة، وهكذا فعلوا في انتظار أن تعجّ شباكهم من جديد بالسّمك الوفير. وخلال تلك الفترة الحرجة، حاولوا التّحايل على جوعهم عبر التهام الكلمات.

الطّفل وسمكة السّلّور

(جزيرة سردينيا)



حتّى السّمك يوفي بوعوده.

يُروى أنّ صيّادًا أرملًا كان يعيش مع ابنه « إيطالو » في جزيرة كبيرة من جزر البحر الأبيض المتوسّط. ما فتئ الطّفل، ومنذ أن تعلّم النّطق، يطلب من أبيه اصطحابه معه على المركب، ولكنّ الصّيّاد كان يرفض مُردّدًا :

— لن تبحر معي حتّى تصير غلامًا يافعًا.

حينما أتمّ إيطالو عامه السّابع، ركب البحر مع والده، وأخذ يساعده في تجهيز الشّراع وإلقاء الشّباك والقيام بكلّ الأشغال الّتي تتطلبها مهنة الصّيد. كان الصّبيّ سعيدًا، يركض

بين مقدّمة القارب ومؤخرته، بين ميسرته وميمنته، كما لو أنّه مملكته الخاصّة. كان الأب فخورًا بابنه، ويحدّث نفسه قائلًا : « يومًا ما، سيحمل إيطالو المشعل عنّي، وحينما أشيخ سأبقى على اليابسة أصلح الشّباك بينما يمضي هو إلى الصّيد ».

في آخر الظّهيرة، بدأ الأب يسحب من البحر أسلاك الصّيد الطّويلة المجهّزة بالشّصوص، فيما أخذ إيطالو في التقاط الأسماك العالقة بها، وإذا به يصادف سمكة سلّور ضخمة ذات جسم أملس وطويل كالثّعبان. حاول إيطالو سحبها من الماء، ولكنّ السّمكة راحت تتخبّط وتخفق الهواء بذيلها خفقًا عنيفًا، فطلب الصّبيّ المساعدة من أبيه الّذي أمسك بالمجذاف ولطم السمكة فخرّت صريعة، وقال في سرور :

— إنّها حقًّا غنيمة جيّدة. سنجني منها مبلغًا كبيرًا.

ما إن فرغ الصّيّادان من سحب جميع الأسلاك حتّى اتّخذا وجهتها نحو الجزيرة. سلّم الأب دفّة القيادة لإيطالو وتولّى هو أمر الشّراع. وانطلق المركب بسرعة نحو السّاحل مدفوعًا بنسمات عليلة.

كانت سمكة السّلّور هامدةً قُبالة الطّفل، ولكنّ عيناها كانتا تتحرّكان، رآهما إيطالو فصاح :

— أبي ! إنّ السّمكة تنظر إليّ.

— هذا مستحيل يا بنيّ، إنّها ميّتة !

أحكم الطّفل قبضته على الدّفّة مُصوّبًا بصره نحو السّمكة. كانت عيناها تنتعشان أكثر فأكثر، تحدّق في إيطالو ثمّ تُجيل النّظر في البحر لتعود وتحملق في الصّبيّ. دبّت الحياة في سمكة السّلّور من جديد، وعلى حين غرّة، قفزت والتفّت بجسدها حول الطّفل ثمّ سحبته معها بين الأمواج الزّرقاء، فيما كانت حمرة السماء تتلاشى في الأفق فاسحةً المجال لعتمة اللّيل. صاح الأب وهو يشاهد ابنه يختفي في الماء :

— إيطالو !

استبدّ اليأس بالرّجل المسكين حتّى كاد يفقد عقله، وظلّ حينًا من الزّمن حزينًا معتكفًا في بيته قبل أن يشرع مجدّدًا في الخروج إلى البحر. كلّ صباح، كان ينطلق بمركبه مع بزوغ الفجر، ويلقي بمرساته في المكان حيث اختفى إيطالو ويحدّث الأمواج وهو يصطاد ؛ كان يخبرها عن حبّه لابنه وحسرته على فقدانه.

ومرّت عشر سنوات، كان الصّيّاد خلالها يكبر ويفقد رويدًا رويدًا كلّ طعم للحياة، فانغلق في وحدته منعزلًا.

ذات يوم، حلّ بالقرية شابٌ وسيم مجهول لدى الجميع. تريّث قليلًا أمام بيت الصّيّاد ثمّ ذهب إلى الميناء، وهناك عَلِم بأنّ العجوز عادةً ما يعود من البحر في آخر الظّهيرة. حرص الشّابّ على التّملّص من الأسئلة الّتي كانت تُطرح عليه، وعندما سُئل عن البلد الّذي أتى منه، اكتفى بإشارة من أصبعه إلى البحر. وأخيرًا، لاح شراع مركب الصّيّاد العجوز في الأفق. كان يبدو أكبر كلّما اقترب، وسرعان ما صار في الميناء. دنا الشّابّ منه وسأله :

— هل تبيع السّمك الّذي تحمله ؟

— لا !

— إنّ هذا من سوء حظّي، فأنا أتضوّر جوعًا.

— في هذه الحال، أوافق على بيعك بعضًا منه.

عندها قال الشّابّ موضّحًا :

— أنا غريب، وليس لديّ مكان أطهو فيه هذا السّمك، فهل توافق على طهيه عندك ثمّ نتقاسمه سويًّا ؟ وسأدفع لك ثمن كلّ ذلك.

ثمّ مدّ الشّابّ يده إلى الصّيّاد وناوله صُرّةً، فوافق على طلبه وقال :

— تعالى إلى بيتي بعد ثلاث ساعات، أسكن في...

قاطعه الشّابّ :

— أعرف أين يقع بيتك.

ثمّ ذهب يتجوّل بمحاذاة الشّاطئ ريثما يحلّ موعد العشاء. كانت الصّرّة مليئةً بالذّهب، فلم يدّخر الصّيّاد العجوز منها شيئًا، واشترى خضرًا وفواكه وحلويّات وعدّة زجاجات مشروبات. حضّر مأدبة فاخرة، ثمّ ارتدى ثيابًا جميلة إكرامًا وتقديرًا لضيفه. وقبل لحظات من قدوم الشّابّ، وضع العجوز الأطباق على طاولة كبيرة.

حينما وصل الضّيف، هتف وهو يستعدّ للجلوس :

— يا لها من رائحة زكيّة.

ملأ العجوز الأقداح، وراح الاثنان يحتسيان الشّراب. قال الشّابّ :

— أنا في قمّة السّعادة لرؤيتك بصحّة جيّدة بعد طول هذه السّنين.

حدّق الصيّاد فيه باندهاش، فنزع الشّابّ القلادة الفضّيّة المعلّقة في عنقه ووضعها على الطّاولة. بدت القلادة مألوفة لدى الشّيخ. حملها وقَلَبَها. كان محفورًا على ظهرها اسم : « إيطالو ». فقال العجوز بتلعثم :

— ولكنّها قلادة ابني !

صدّق الشّابّ على قوله :

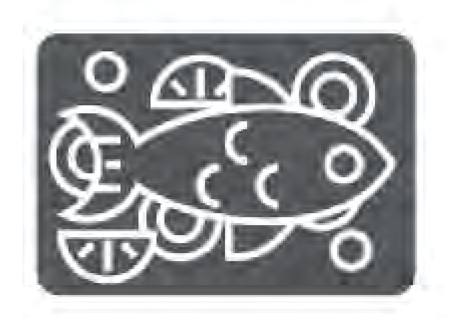
— بالفعل.

كنت في السّابعة من العمر حينما سحبتني سمكة سلّور تحت الماء، وسجنتني عشرة أعوام في « مملكة السّلّور »، وكانت هي الملكة، انتقامًا من الصّيّادين الّذين كانوا يقتلون أبناء جنسها. بَيْدَ أنّها أحسنت معاملتي، تعلّقت بي ووفّرت لي تعليمًا ممتازًا. وهذا الصّباح، أخلت سبيلي وأعطتني كنزًا هائلًا قبل أن تضعني على الشّاطئ ، ذلك أنّها أحبّتني حبًّا جمًّا. وفي مقابل ذلك، وعدتها بأن أمتنع عن اصطياد أسماك السّلّور إلى الأبد.

عندما فرغ إيطالو من الحديث، كانت دموع الفرح تفيض من عيني والده. تعانقا ثمّ تناولا أطيب عشاء في حياتهما.

الصّيّادون الثّلاثة

(فرنسا)



حينما نفعت الحيلةُ الصّيّادَ،
فتمكّن من ملء بطنه لمّا جاع.

في تلك الصّبيحة، كان الجوّ جميلًا، ولكنّ طقس البحر الأبيض المتوسط أحيانًا يتبدّل بين لحظة وأخرى. بغتة، بدأ رذاذ المطر في التّساقط مُعلنًا عن اقتراب العاصفة لثلاثة صيّادين كانوا يعملون على نفس المركب. أظلمت السّماء وارتدت ثوبًا رماديًا فحميًا سرعان ما صار أسود قاتمًا، وعلت الأمواج فسحب الرّجال شباكهم. وفي لمح البصر، اهتاجت العاصفة هيجانًا شديدًا.

دوّى هزيم الرّعد، ومزّق البرق صفحة السّماء، وهبّت رياحٌ عنيفة دفعت المركب نحو الشّاطئ، وإذا بموجة هائلة تقذفه إلى غور بحري ؛ فظنّ الصّيّادون أنّ المركب سيتحطّم على الصّخور لا محالة. لكنّ الحظّ حالفهم، فوجدوا أنفسهم في مضيق رمليّ مديد، دون أن يمسّهم أيّ ضرر.

شدّ الصّيّادون الثّلاثة وثاق مركبهم جيّدًا، وسارعوا إلى مغارةٍ صغيرة وجدوا بداخلها بعض الحطب. نالوا قسطًا وافرًا من الرّاحة قبل أن يأخذهم تفكيرهم إلى السّمكة الوحيدة الّتي خرجوا بها من بين الأمواج المضطربة. لم تكن السّمكة كبيرةً بما يكفي لإشباعهم جميعًا، فرغب كلّ واحد منهم في أن يأكلها وحده. ولكن، كيف السّبيل إلى تحديد من سينال هذا الامتياز ؟ فكّروا في طرق عديدة، ثمّ استقرّوا على حلّ رضوا به جميعًا : سيخلدون إلى النّوم، وعند استيقاظهم، ستُقدّم السّمكة لصاحب أجمل حلم.

استلقى الصّيّادون الثّلاثة، وسرعان ما غفا اثنان منهم، فيما ظلّ ثالثهم مستيقظاً، وكان الأمكر بينهم. وما إن غطّ رفيقاه في نوم عميق حتى قام وأشعل نارًا صغيرة ثمّ شوى السّمكة والتهمها بسرعة، ثمّ خلد إلى فراشه ونام هو أيضًا.

بعد بضع ساعات، أفاق الصّيّادون الثّلاثة، وقال الأوّل :

— لقد رأيت حلمًا رائعًا، جاءني فيه مَلَكان وأقلّاني إلى الجنّة حيث تحدّثت مع أبواي وأجدادي.

قال الثّاني :

— إنّه حلم جميل، لكنّ حلمي أجمل. لقد جاءني ملكان وضربا الأرض بأقدامهما فانشقّت، ثمّ حملاني إلى جهنّم حيث رأيت الشّيطان وهو يدفع الأشرار إلى لهيب النّار.

وقال الثّالث :

— إنّ حلميكما جميلان، لكنّكما، ولا شكّ، ستتّفقان معي بأنّ حلمي أجمل من حلميكما بمرّتين، ذلك أنّه يشتمل ما رأيتماه معًا. لقد رأيت أحدكما يصعد إلى الجنّة والثّاني ينزل إلى جهنّم، فاقتنعت بأنّكما لن تعودا أبدًا ؛ وبالتّالي شويت السّمكة وأكلتها.

الطّفل والشّيطان

(جزيرة كورسيكا)



بالنّسبة إلى الشّيطان، يمكن للابن أن يحلّ دائمًا محلّ الأب.

كان يا ما كان في قديم الزّمان، رجل وامرأة متزوّجان منذ أكثر من عشر سنوات ولم يكن لديهما أطفال. كان ذلك الوضع يقلق المرأة كثيرًا، ففي كلّ مرّة كانت تسمع فيها بولادة طفل جديد في القرية، تنفجِر باكية وتستمرّ على هذه الحال لساعات.

ذات يوم، وبينما كانت الزّوجة تجمع الكستناء مع جاراتها وكلّ واحدة منهنّ تتحدّث عن أطفالها، قالت لهنّ بصوت مرتفع :

— أودّ حقًّا أن يكون لديّ طفل، حتّى وإن أخذه منّي الشّيطان يومًا.

نظرت إليها جاراتها مذعورات، ولكن ما من واحدة تجرّأت على أن توجّه إليها أيّ ملاحظة، ورسمت بعضهنّ إشارة الصّليب لطرد الرّوح الشّرّيرة.

في السّنة التّالية، رُزقت المرأة أخيرًا بطفل. جلب هذا الطّفل بقدومه السّعادة لها ولزوجها وحظي بالعناية والدّلال. كبر الطّفل دون أن يسبّب أيّ مشكلة لوالديه، إلّا أنّه في إحدى اللّيالي، رأى الزّوجان الحلم نفسه، أو بالأحرى الكابوس نفسه ؛ حيث عرفا أن الشّيطان سينغّص عليهما سعادتهما وذلك بأن يسلبهما أعزّ ما يملكان : ابنهما. وسيحدث ذلك في عيد ميلاده الثّامن عشر.

عندما بلغ الابن خمسة عشر عاما من عمره، بدأ يلمح شيئًا من الحزن في عيني والديه، وكان ذلك الحزن يكبر كلّما تقدّم في السّنّ.

— لماذا أنتما حزينان إلى هذه الدرجة ؟ سأل الابن.

— لقد حان الوقت لتعرف ما أخفيناه عنك طوال هذه المدّة. أجاب الوالدان. سيأتي الشّيطان بحثًا عنك ما إن تبلغ ثمانية عشر عامًا، ولن يتمكّن من القيام بذلك إلّا في ذلك اليوم.

— سأفعل ما بوسعي لمنعه من ذلك. أجاب الصبي.

قبل أسابيع من التّاريخ المحتوم، قرّر الفتى أن يمضي بحثًا عن الشّيطان ليحاول التّفاوض معه، وربّما ليقتله إن سنحت الفرصة لذلك. فأخبر والديه بالأمر. وفي صبيحة اليوم الّذي قرّر فيه الرّحيل، وضعت الأمّ في متاعه بعض الخبز واللّحم والجبن، وأعطاه والده خنجر الصّيد الّذي يتناقله رجال العائلة من جيل إلى جيل. عانق الفتى والديه وانطلق.

ابتعد الفتى عن القرية وعبر غابة شاسعة دون أن يلتقي بالشّيطان. ومع مغيب الشمس، وصل إلى قرية صغيرة، فطرق أوّل باب صادفه. فتح له رجل، كان راعيًا عجوزًا، أدخله إلى بيته وأحسن ضيافته، وبينما كان الفتى يتناول الطّعام، بدأ الرّاعي يطرح عليه الأسئلة، فأخبره بسبب سفره وأخبره بأنّه متوجّه نحو السّاحل الشّرقيّ.

— كان ينبغي عليك أن تحضر معك كلبًا. سوف أعطيك الكلب الّذي كان يملكه أخي والّذي حصلت عليه بعد وفاته. إنّه قويّ ولا يخشى أحدًا حتّى الذّئاب. سيعتاد عليك بسرعة وسيعينك على مواجهة الشّيطان.

في اليوم التّالي، شكر الشّابّ الرّجل العجوز وانطلق برفقة الكلب. كان كلبَ حراسة ذا أنياب حادّة، تمّت تربيته تربية

صارمة، فقد كان يستجيب بلا كلل للأوامر الّتي توجّه إليه. سلك الشّابّ والكلب طريقًا طويلًا يتعرّج عبر الأجمة، وواصلا السّير طوال النّهار، وأخيرًا أمضيا اللّيل في حظيرة مهجورة.

عندما بلغا ضفّة البحر الأبيض المتوسّط، مشيا على طول الشّاطئ صعودًا نحو الشّمال. كان الطّقس لطيفًا. ناما في العراء لليلتين متتاليتين، ثمّ استراحا في نزل متواضع، وتابعا طريقهما حتّى وصلا إلى مدينة صغيرة حيث استأجر الشّابّ غرفة صغيرة عند أحد سكّانها. كان قد ترك قريته منذ أكثر من أسبوع دون أن يلتقي بالشّيطان، وبدأ يتساءل أين يمكن أن يكون هذا الخبيث قد اختبأ.

في صبيحة اليوم التّالي، بدأت كلّ أجراس المدينة تُقرع.

– ماذا يجري ؟ سأل الشّابّ.

أجابه النّاس أنّ وحشًا يهدّد بتدمير المدينة إن لم تُمنح له كلّ يوم فتاة شابّة يلتهمها كوجبة غداء ؛ لذا كانت الأجراس تقرع لتذكير السّكّان بذلك.

– يجب التّخلص من هذا الوحش ! قال الشّابّ متعجّبًا.

– هذا أمر مستحيل، إنّه شديد القوّة والبأس. أجابه أحدهم.

– مع ذلك، سأحاول. أين يمكنني إيجاده ؟

— إنّه يعيش في البحر، ويخرج منه كلّ يوم قبل الظّهر بقليل ليستولي على فريسته الّتي يلتهمها فوق الرّمل بجانب برج جنوة الّذي يمكنك رؤيته من هنا.

— أعطوني سيفًا كبيرًا وسأمحوه من وجه الأرض. قال الشّابّ بحزم.

حصل الشّابّ على ما طلبه وانطلق إلى الشّاطئ برفقة كلبه. جلس على صخرة وأمعن النّظر في البحر بينما كان الحيوان يطارد النّوارس الّتي كانت تمشي على الرّمل المبلّل. طارت الطّيور وحطّت في مكان أبعد، فتابع الكلب جريه باتّجاه الطّيور البحريّة، إلا أنّه توقّف فجأة مقابل البحر فانتصب شعر جسمه وكشّر عن أنيابه وأخذ يدمدم، ثمّ عاد أدراجه للّحاق بصاحبه، وما إن اقترب منه حتّى أخذ ينبح ليحذّره من خطر وشيك. عندها فهم الشّابّ أنّ الوحش سيظهر، فوقف واستلّ سيفه.

أخذ البحر يغلي ويزبد وظهر الوحش على سطح المياه. خرج من البحر وتقدّم فوق الشّاطئ الرّمليّ.

— أين غدائي ؟ زمجر الوحش.

— لن تحصل على شيء اليوم، أجاب الشّابّ.

— سوف ألتهمك أنت وكلبك.

— ما ستتذوّقه هو طعم سيفي وطعم أنياب كلبي.

— لن تستطيعا أنتما الاثنان أن تقفا في وجهي.

كانت للوحش سبعة رؤوس، كان ينبغي قطعها كلّها للقضاء عليه. من أوّل ضربة سيف، قطع الشّابّ أحد رؤوس الوحش، بينما عضّه الكلب بوحشيّة في رجله. انخفض الوحش، والتقط الرّأس ووضعه في مكانه.

— اتركه واهتمّ بالرّؤوس. صاح الشّابّ مخاطبًا كلبه.

لوّح الشّابّ بسيفه وقطع رأسًا ثمّ اثنين ثمّ ثلاثة...وأخيرًا وصل إلى الرّأس السّابع الّذي أصدر صوتًا مكتومًا وهو يسقط فوق الرّمل المبلّل. في كلّ مرّة كان الكلب يلتقط الرّأس الّذي يقطعه صاحبه ويبعده عن الوحش كي لا يتمكّن هذا الأخير من استرجاعه. كان كلٌّ منهما يشجّع صاحبه، الأوّل بإطلاق صرخات عالية والثّاني بالنّباح الشّرس. في النّهاية انهار الوحش وقضى نحبه.

احتفل سكّان المدينة بالشّابّ وكلبه، فتهافت الجميع على مداعبة الكلب، كما غمروا صاحبه بالهدايا، حتّى أنّ أغنى رجل في المدينة عرض عليه الزّواج بابنته.

كانت الفتاة رائعة الجمال، ما جعل الشّابّ يقبل دون تردّد. أقيم حفل الزّواج في عيد ميلاده الثّامن عشر، وحضر أهله الحفل الّذي دام ثلاثة أيّام بلياليها دون انقطاع. كان المكان

مزدحمًا بالنّاس بحيث لم يتمكّن الشّيطان من الاقتراب، وهكذا نجا العريس منه.

بعد مرور عام، أنجب الزّوجان طفلًا اختفى من مهده بعد ولادته ببضعة أيّام. لم يعرف أحد من اختطفه.

« كان ذلك انتقام الشّيطان »، هكذا فكّر الجدّان دون أن يجرؤا على البوح بذلك أمام أحد.

الحذاء والقبّعة

(إسبانيا)



في هذه القصّة، يقطع الحذاء مسافات طويلة ويبقى جديدًا. أمّا القبّعة فلها دور آخر غير الحماية من الشّمس.

كان يا ما كان، رجل وامرأة يشتغلان بالفلاحة، ولديهما ابن وثلاث بنات. كانت العائلة تعاني الفقر المدقع، ما دفع الابن للاغتراب بحثًا عن المال في مكان آخر. وليطعم عائلته، كان الأب يزرع قطعة أرض متواضعة ويجوب الغابات المجاورة ليجمع الحطب وينقله على ظهر حماره ليبيعه لسكّان قريته.

في صبيحة أحد الأيّام، وبينما كان يمضي ليوم عمل شاقّ، اعترض طريقه حملٌ.

أوقف الفلّاح حماره، فألقى عليه الحمل التّحيّة وأخذ يحدّثه ؛ ذعر الفلاح...

— لا تخف، قال الحيوان، أودّ فقط أن أقترح عليك أمرًا.

— إنّي أستمع إليك، أجاب الرّجل بشيء من الارتياب.

— أعطني ابنتك البكر وسأملأ قفتيّ حمارك بالذّهب.

— لن أعطيك إيّاها إلّا إذا قبلت هي بذلك. أجاب الفلّاح.

— سأمرّ بمنزلك بعد بضعة أيّام للحصول على جواب. قال الحمل.

في المساء، تحدّث الأب مع ابنته في الأمر. وقبلت البنت به لتخلّص أهلها من فقرهم ؛ فأعطاها الأب للحمل وحصل على ما وعده به.

بعد عدّة أسابيع، حطّ نسر في وسط الطّريق مجبرًا حمار الفلّاح على التّوقّف. كان الطّائر يتكلّم أيضًا، ألقى التّحيّة على الفلّاح وطلب يد ابنته الثّانية، وقال له :

— إذا أعطيتني ابنتك، سأملأ قفتيّ حمارك بالفضّة.

— يجب أن أستشيرها أوّلًا، أجاب الأب.

قبلت الفتاة، لأنّها كانت تودّ مساعدة أهلها كما فعلت أختها ؛ فأعطاها الفلّاح للنّسر الّذي التزم بوعده.

جرت الأمور على نفس المنوال بالنّسبة للبنت الثّالثة الّتي أُعطيَت لسمكة ضخمة مقابل قفّتين من البرونز.

قام الأب بإصلاح منزله وتوسيعه مستخدمًا جزءًا من الأموال الّتي حصل عليها.

بعد مرور سنتين، عاد الابن من السّفر. لم يكن قد كوّن ثروة وإنّما عاد بمبلغ من المال كان قد جمعه على أمل أن يشتري قطعة أرض صغيرة ويستقرّ فيها. كان قد ترك أهله فقراء وعاد ليجدهم وقد أصبحوا أغنياء.

— أين أخواتي ؟ سأل الشّابّ.

— لقد تزوّجن وذهبن مع أزواجهنّ. أجاب الأب.

— كانت زيجات موفّقة. حصلنا لقاء موافقة والدك على ثروة كبيرة.

— لقد قمتما إذن ببيعهنّ. أجاب الابن موبّخًا.

— لا أبدًا ! أجاب الوالدان. لقد وافقن بملء إرادتهنّ.

— وأين يعشن ؟

— لا نعرف. فمنذ رحيلهنّ لم نسمع أيّ خبر عنهنّ.

غضب الابن لسماع ذلك.

— كيف استطعتما تزويجهنّ لغرباء و تركهنّ يذهبن من دون أن تعرفا إلى أين ؟

— كنّا نعاني من فقر شديد ممّا جعلنا لا نفكر إلّا في إمكانية التّخلّص من وضعنا المزري، أجاب الوالدان.

— سوف أذهب للبحث عنهنّ لأرى إذا كنّ سعيدات، قال الشّابّ.

— كيف ستجدهنّ طالما أنّك لا تعرف مكان سكنهنّ ؟

— سأتدبّر أمري !

— ابق معنا وتمتّع بثروتنا.

رفض الابن البقاء، فأعطته أمّه الزّاد للطّريق وأعطاه أبوه المال وكذلك عصا المسافر. عانق الابن أبويه وانطلق. استمرّ في المشي لعدّة أيّام إلى أن التقى برجُلين يتنازعان حول ملكيّة قبّعة وفردتي حذاء.

— على رِسْلكما، قال الشّابّ لهما. لا مبرّر لخصامكما، فإنّ ما تتعاركان من أجله لا قيمة له.

— أنت مخطئ في ما تقول، لأنّ هذه الأشياء مسحورة، فالقبّعة تجعل من يلبسها غير مرئيّ، أما الحذاء فهو ينقل من ينتعله بسهولة أنّى يريد.

— حسنًا، قال الشّابّ، أقترح أن أكون الحَكَم بينكما.

وافق المتخاصمان. تابع الشّابّ قائلًا :

— ستتسابقان وستركضان حتّى تلك النّخلة الّتي نراها من هنا، وسيكون لأول الواصلين الحقّ في الاختيار بين القبّعة والحذاء من دون أن يعترض الآخر.

وقف الرّجلان على خط الانطلاق الّذي رسمه الحَكَم، وانطلقا عند سماع الإشارة. وعندما كانا يركضان، وضع الشّابّ القبّعة على رأسه فاختفى، ثمّ انتعل الحذاء وقال له :

— خذني إلى حيث توجد أختي الكبرى.

عندما وصل المتسابقان إلى النّخلة، كان الحَكَم قد أصبح بعيدًا جدًّا، وعندها فهم المسكينان أنّه بدل أن يتنازعا كان يجدر بهما أن يتّحدا ليستفيدا كلٌّ بدوره من الأشياء المسحورة الّتي ضيّعاها بسبب غبائهما.

وجد الشّابّ نفسه أمام صخرة كبيرة، دار حولها عدّة مرّات. وعندما لم يجد ما يمكّنه من العثور على أخته الكبرى، أخذ الشّكّ يساوره : « يا ترى هل أحضرني الحذاء إلى حيث أردت ؟ ». تابع البحث لكن دون جدوى، وتملّكه شيء من اليأس سرعان ما تحوّل إلى غضب، فضرب الصّخرة بعصاه ضربة قوية، فكانت الدّهشة حينما سمع صوتًا أنثويًّا يعرفه :

— من هناك ؟

— أنا أخوك. أجاب الشّابّ.

انفتحت الصّخرة وخرجت منها أخته الكبرى الّتي ارتمت في أحضانه واستسلم الاثنان للعناق.

— ماذا تفعل هنا ؟ سألته.

— كنت أبحث عنك. كنت أودّ أن أطمئنّ عن أحوالك.

— إنّي بخير، لكن يجب ألّا يراك زوجي وإلّا سيقتلك.

— من هو زوجك ؟

— ملك الحملان.

— لا تخافي، فأنا أملك قبّعة سحريّة تجعلني غير مرئيّ بمجرّد أن أضعها فوق رأسي.

— إن لم يرك، فإنه سيشعر بوجودك. وإن رفضت أن أدلّه على مكانك فقد يقتلني أنا.

بعد برهة، وصل الزوج. لكن الأخ كان قد اعتمر قبعته.

— يا امرأة، إنّي أشمّ رائحة رجل ! إن لم تسلّميه لي فسوف تدفعين الثّمن.

— إنّه أخي، لقد جاء ليراني.

— فليخرج إذن من مخبئه. أعدك ألّا أُلحق به أيّ أذى.

نزع الأخ قبّعته فأصبح مرئيًا. ألقى التّحيّة على صهره وتحدّث إليه طويلًا، وقال له زوج أخته :

— إنّي أجدك لطيفًا جدًّا. اقتلِع إذن شعرة من رأسي، وإذا احتجت للمساعدة في أحد الأيام، أمسك بالشّعرة بين السّبّابة والإبهام وقل : « يا ملك الحملان، هلمّ لمساعدتي ! » وسأحضر في الحال.

شكر الشابُ الحمل على حسن صنيعه ثمّ طلب من الحذاء أنْ ينقله إلى حيث توجد أخته الوسطى. حينها وجد نفسه أمام صخرة مشابهة للصّخرة السّابقة، فضربها بعصاه، فسمع صوتًا أنثويًا يعرفه :

— من هناك ؟

— أنا أخوك !

انفتحت الصّخرة وظهرت الأخت الوسطى، فتعانقا ثمّ سألته :

— لِمَ أنت هنا ؟ سألته.

— كنت أودّ الاطمئنان عليك.

— أنا بخير، لكن عليك أن تذهب قبل أن يأتي زوجي، لأنّه سيقتلك إنْ وجدك هنا.

— من يكون زوجك ؟

— ملك النّسور.

حضر الزّوج على الفور، وفي لمح البصر، اعتمر الشّابّ قبّعة الإخفاء.

— يا امرأة، أشمّ رائحة لحم بشريّ. قال الزوج.

— إنه أخي، جاء لزيارتي.

— فليظهر، عليه الأمان.

نزع الشّابّ قبّعته وألقى التّحيّة على صهره. تعارفا وتحدّثا لوقت طويل، ثمّ قال له زوج أخته :

— أودّ أن أقدّم لك هديّة. انتزِع ريشة من رأسي واحتفظ بها، وإن واجهتك مشاكل يومًا ما، أمسك بها بين السّبّابة والإبهام وقل : « يا ملك النّسور، ساعدني ! » وسأحضر على الفور لمساعدتك.

شكر الشّابّ النّسر، وعانق أخته الوسطى، ثمّ طلب من الحذاء أن ينقله إلى حيث أخته الصّغرى ؛ فوجد نفسه على شاطئ البحر. في هذه المرّة أيضًا، ضرب الماء بعصاه، فما لبث أن انبعث من الماء صوت امرأة يعرفه :

— من هناك ؟

— أنا أخوك !

خرجت الأخت الثّالثة من المياه فتعانقا. سألته أخته عن أحوال عائلتها فطمأنها عن والديها وأختيها، ثمّ سألها :

— وأنتِ كيف حالك ؟

— أنا بخير، لكن عليك الذّهاب قبل أن يأتي زوجي ويجدك، لأنّه إن وجدك فسوف يقتلك.

— من يكون زوجك ؟

— ملك الأسماك.

سرعان ما ظهر الزّوج، فوضع الأخ قبّعته بسرعة واختفى.

— يا امرأة، إنّي أشمّ رائحة لحم بشريّ. قال الزّوج.

— إنّها رائحة أخي الذّي جاء لرؤيتي.

— فليظهر ! ما من داع ليخاف منّي !

خلع الشّابّ قبّعته وظهر من جديد. تعرّف على صهره الّذي وجده لطيفًا فقال له :

— انزع قشرةً من رأسي، وإذا واجهتك مشكلة في أحد الأيّام، أمسك بها بين السّبّابة والإبهام وقل :

« يا ملك الأسماك، ساعدني ! » وسأهبّ لنجدتك.

— شكره الشّابّ، ثمّ ودّع أخته واستأذن بالانصراف.

أخرج من جيبه العلبة الصّغيرة الّتي كان قد وضع فيها الشّعرة والرّيشة وأضاف القشرة، ثمّ قال لحذائه :

— خذني إلى حيث تنتظرني ثروتي، سواء أكانت جيّدة أم سيّئة.

أخذه الحذاء إلى مكان ضيّق بين جرفين صخريّين. في آخر الممرّ، كان يوجد قصر، وكان بابه مفتوحًا. وضع الشّابّ قبّعة الإخفاء ودخل.

في بهو الاستقبال الواسع، رأى فتاة تجلس إلى طاولة كبيرة. كانت الفتاة وحدها. اقترب منها عملاق يحمل طبقًا فيه الوجبة المخصّصة للفتاة، وضعه أمامها وانصرف. جاء الشّابّ وجلس قرب الفتاة، وكان لا يزال متخفيًا. كانت الفتاة رائعة الجمال. كان يتأمّلها وهي تأكل وكان يأكل من طبقها خلسة. وكلما نظر إليها، ازداد إعجابًا بها.

عندما أكملت الفتاة طعامها، نادت العملاق وقالت له مؤنّبة :

— لم يكن الغداء كافيًا هذه المرّة.

— كانت كميّة الطّعام كالمعتاد.

— لكني أشعر كما لو أنّني لم آكل شيئًا.

— ليس بإمكاني فعل شيء، أجاب العملاق هازًّا كتفيه قبل أن يفرغ الطاولة.

ما إن خرج العملاق حتّى سعل الشّابّ قليلًا تمهيدًا لظهوره.

— مَن هناك ؟ سألت الفتاة وهي تتلفت حولها بقلق، فأجابها الشّابّ بعد أن خلع قبّعته.

— لا تخافي، لا أريد بكِ شرًّا. أردت فقط أن أعرف ماذا تفعلين هنا.

— لقد اختطفني العملاق الّذي رأيته منذ قليل، وهو يحتجزني في هذا القصر المسحور.

— لِمَ لا تلوذين بالفرار طالما أنّ الباب مفتوح على مصراعيه ؟

— لقد حاولت، لكن هنالك عند المدخل حاجز غير مرئيّ لا يوقف أحدًا غيري. لن أتمكّن من الخروج من هنا إلّا عندما يموت العملاق. ولا يوجد سوى حلّ وحيد لقتله.

— ما هو ؟

— يجب البحث عن صخرة توجد في وسط البحر الأبيض المتوسّط وإحضارها إلى اليابسة. في داخلها، توجد حمامة يجب التقاطها والاحتفاظ بها حتّى تضع بيضة، في هذه البيضة يكمن سرّ حياة العملاق وموته.

— سأفعل ما بوسعي لأحضر لك هذه البيضة. أجاب الشّابّ.

خرج الشّابّ من القصر وأمر حذاءه بأن يأخذه إلى حيث توجد الصّخرة. فانتقل على الفور إلى البحر. وفي الحال، لمح جزيرة مقفرة، رسا فوقها. بجانب الجزيرة، كانت تطفو صخرة فوق الموج. من دون تردّد، أخرج الشّابّ العلبة الصغيرة من جيبه، وتناول القشرة الّتي وضعها في راحته. لم تكن قشرة السّمكة قد جفّت بعد. كانت لا تزال محتفظة بلمعانها وشفافيتها المائلة إلى اللّون الفضّيّ كما كانت يوم أعطاه إيّاها صهره.

— يا ملك الأسماك، ساعدني على نقل هذه الصّخرة إلى اليابسة.

انتظر الشّابّ ولم يحدث شيء.

كرّر الجملة مشدّدًا على كلّ مقطع. لا شيء ! جلس على الحصى البيضاء فوق الشّاطئ وفكّر بالفتاة. كان شديد الإعجاب بها بحيث أنّه كان من المستحيل أن يتركها بين يدي العملاق. « ربّما لم تكن تلك العبارة الصّحيحة »، قال في نفسه.

تذكّر كلمات صهره لعدّة مرّات، كانت مطابقة بالفعل للّتي كان قد تلفّظ بها لمرّتين. كان واثقًا من أنّه لم يخطئ ولم يكن ليفهم لماذا تخلّى عنه ملك الأسماك.

أخيرًا استسلم لفشله، وقرّر أن يترك الجزيرة. أخرج من جيبه العلبة الصّغيرة وأمسك بين السّبّابة والإبهام القشرة الّتي كان قد وضعها في راحة يده، وفي اللّحظة الّتي أراد فيها أن يعيدها إلى العلبة، حاول أن يتلفّظ بالعبارة. في هذه المرّة، كان يمسك بالقشرة كما ينبغي ؛ وسرعان ما اقترب عدد وفير من الأسماك أحاط بالصخرة واقتلعها من البحر وحملها إلى اليابسة، بينما كان الشابّ الّذي حمله حذاؤه يلحق بالأسماك بفرحة عارمة.

ولمّا وصل إلى الصّخرة أمسك شعرة الحمل وقال :

– يا ملك الحملان، هلمّ لمساعدتي واكسر هذه الصّخرة.

وعلى الفور حضر ألف حمل فضربوا الصخرة برؤوسهم وفتّتوها، فتحرّرت الحمامة وطارت ؛ فأخذ ريشة النّسر بين السبّابة والإبهام وقال :

– يا ملك النّسور، ساعدني أرجوك. أمسك هذه الحمامة وأحضرها لي.

أحاطت مجموعة من النّسور بالحمامة، وأمسك أحدها الحمامة بين مخالبه وأعطاها للشّابّ، فأحكم هذا الأخير قبضته عليها وطلب من حذائه أن يعيده إلى القصر. في اللّحظة الّتي وصل فيها إلى الفتاة، وضعت الحمامة بيضة، فقال :

– ها هو سرّ حياة العملاق وموته. ماذا عليّ أن أفعل ؟

– يجب أن تكسرها على رأسه لقتله.

انتظر الشّابّ حلول اللّيل ليتصرّف، ولمّا نام العملاق تسلّل إلى غرفته واقترب من سريره وكسر البيضة على رأسه، فمات العملاق.

خرجت الفتاة إذ ذاك من القصر، وقبلت الذّهاب مع الشّابّ فقد كانت شديدة الإعجاب به. حملها الشّابّ بين ذراعيه بينما نقلهما الحذاء إلى بيت والديه.

بعد بضعة أسابيع، تزوّجا، وحضرت الأخوات الثّلاث عرسهما، وكنّ برفقة أزواجهنّ الّذين تحوّلوا من حيوانات إلى رجال بمنتهى الوسامة ؛ إذ كان مفعول السّحر قد بطل في اللّيلة الّتي اختفى فيها العملاق.

الدّلفين الكريم

(جزر البليار)



يُقال عن الدّلافين أنّها صديقة الإنسان، وقد تسعى لنجدته حينما تواجهه المآزق. تُحدّثنا هذه الحكاية عن دلفينٍ صاحب جود وكرم، لم يتوانَ في مساعدة صيّاد شابّ وقع عليه ظلم، وفي تأنيب الملك لينصفه ويعيد حقّه المسلوب.

في قرية صغيرة تقع على تخوم البحر الأبيض المتوسّط، كان يعيش صيّاد وزوجته. لم يكونا أغنياء جدًّا، لكنّهما كانا سعيدين.

ذات يوم، وبينما كان الصّيّاد في البحر، داهمته عاصفة، فانحرف مركبه عن مساره مدفوعًا بريح عاتية، وألقت به إلى إحدى الجزر. أنزل الصّيّاد مرساته وترجّل على اليابسة. بدت الجزيرة مهجورة، ومع هذا عثر على كوخ متواضع متوارٍ بين أشجار النّخيل. نادى على أصحاب الكوخ، فبرز له رجل عجوز باسِم الثّغر، تغزو التّجاعيد وجهه، صدره عار، يرتدي سروالًا قصيرًا ويعتمر قبّعة. رفع العجوز قبّعته تحيةً للصّيّاد فانكشفت صلعته الحليقة، ثمّ سأله باندهاش :

— ما الّذي جاء بك إلى هنا ؟ فما عدا العصافير، لم يسبق أن رأيتُ هنا أيّ مخلوق في فصل الشّتاء.

أجاب الصّيّاد مُوضّحًا :

— لقد سحبت العاصفة مركبي إلى هنا.

— هل أنت بمفردك ؟

— أجل.

— إذن، ليس لديك ولدٌ يساعدك في الصّيد ؟

— لا، وهذه حسرةٌ كبيرة في قلبي أنا وزوجتي. لقد قصدنا عدّة أطبّاء، وحتّى السّحرة زُرناهم. لكن، لا أحد نفعنا في شيء. فسلّمنا أخيرًا بأنّنا لن ننجب أطفالًا أبدًا.

حدّق الرّجل العجوز طويلًا في وجه الصّيّاد، ثمّ قال له :

— السّمكة الخضراء هي الحلّ الوحيد لمساعدتك. اصطد واحدة وأطعمها لزوجتك، ومن ثمّ سيكون لك ولد.

قال الصّيّاد :

— منذ أن كنت فتًى يافعًا وأنا أخرج إلى البحر، لكنّ شباكي لم تلتقط أسماكًا خضراء قَطّ. أين يمكنني أن أجد واحدة مثلها ؟

— في الأعماق السّحيقة.

دعا العجوزُ الصّيّادَ على العشاء وقضاء اللّيلة في بيته. وفي الغد، كانت العاصفة قد هدأت. فشكر الصّيّادُ العجوزَ على حسن ضيافته وانصرف بمركبه عائدًا إلى بلده. وحينما وصل إلى بيته، لم تكن تراوده إلا فكرة واحدة، ألا وهي اصطياد سمكة خضراء. ولكن، كيف السّبيل إلى ذلك ؟ وأخذ يجوب السّاحل ويسأل الصّيّادين الّذين يقابلهم. ولكن لا أحد منهم سمع عن مثل هذه السّمكة.

ذات يوم، وبينما كان الصّيّاد عائدًا إلى بيته بعد يوم عمل طويل في البحر، راح يقول في نفسه أنّ السّمكة الّتي أخبره عنها العجوز لا وجود لها على الأرجح إلّا في مخيّلته. وإذا به يلمح دلفينًا يسبح على مقربة من مركبه، وكلّما طفا الدّلفين

إلى السّطح ليأخذ نفَسًا، كان يحدّق في العجوز، إلى أن سأله في الأخير قائلًا :

— ما سبب الحزن البادي على وجهك ؟

— ببساطة، لأنّه ليس لديّ طفل. وقد علمت بأنّ زوجتي لن تتمكّن من الإنجاب إلا إذا أكلَت سمكة خضراء. هل بإمكانك أن تجلب لي واحدة ؟

قال الدّلفين :

— أجل، بشرط أن تعدني بـ...

قاطعه الصّيّاد :

— أعدك بكل ما تريد.

— حسنًا، إذا أنجبتَ طفلًا، أريد أن أكون عرّابه.

هتف الرّجل بإعجاب :

— أعدك ! سأحضره بين يديك حالَمَا يولد.

وقبل أن يغوص في البحر، قال الدّلفين :

— ألق بمرساتك، وانتظرني هنا.

كانت الشمس ترسل آخر أشعّتها قبل الغروب، وقضى الصّيّاد اللّيل بأكمله في الانتظار. وحينما بدأ الأفق يصطبغ بالحمرة، ظهر الدّلفين من جديد وقال :

— ها هي السّمكة الّتي طلبت. أعطها لزوجتك. إن أكلَت الرّأس والذّنب فستنجب صبيًّا، وإن أكلَت الزّعانف فتحصل على فتاة. ولا تنسَ وعدك لي.

قال الرّجل : « اعتمد عليّ » ثمّ شكر الدّلفين. رفع المرساة وقفل عائدًا إلى بيته، وهناك، قام بقلي السّمكة الخضراء وناولها إلى زوجته فأكلتها بأكملها. وبعد انقضاء تسعة أشهر، أنجبت المرأة توأمًا : صبيًّا وصبيّة ؛ فهتف الصّيّاد فرحًا حينما رآهما. عندها تذكّر الوعد الّذي قطعه للدّلفين، فحمل طفله بين ذراعيه وتوجّه به صوب البحر، ولمّا بلغ الشاطئ، وضع الطّفلَ على الرّمل حتّى يتسنّى له نزع حذائه وثني أسفل سرواله. ثمّ تقدّم في الماء ونادى على الدّلفين الّذي سرعان ما ظهر، فقال له الصّيّاد :

— ها هو ابني.

صاح الدّلفين في إعجاب :

— يا له من صبيّ جميل. عليك أن تغطسه في الماء ثلاث مرّات، وهكذا أصبح عرّابه.

وفعل الصّيّاد ذلك، وعندها قال العرّاب :

— إن احتاج إلى أيّ مساعدة فما عليه إلا أن يناديني، وسأحضر على جناح السّرعة.

قال الصّيّاد قبل أن ينصرف :

— مرّة أخرى، أشكرك على كلّ ما فعلته من أجلي.

لاحقًا، تمّ تعميد الصّبيّ وشقيقته في الكنيسة الصّغيرة للقرية، وكبر التّوأم. في البداية، كانا يلعبان في الحديقة المحيطة بمنزل والديهما، ثمّ سرعان ما بلغا سنًّا تسمح لهما بالذهاب إلى الشّاطئ حيث كانا يركضان ويتسابقان. وكان الدّلفين يأتي بين الفينة والأخرى لرؤيتهما ويجلب لهما نجوم البحر والأصداف الجميلة. وحينما تعلّما السّباحة، كان يحملهما على ظهره ويجول بهما عبر الأمواج.

مرّت سنوات عديدة. وصار الشّابّ يرافق والده يوميًّا إلى الصّيد، فيما تشتغل الفتاة ووالدتها بالتّطريز. وسرعان ما بلغا سنّ الزّواج.

مضى بعض الزّمن. وذات يوم من أيّام الصّيف، أذاع الملك في المملكة كلّها أنّه ينوي تزويج ابنته البكر للّذي يتمكّن من جلب الخاتم الملكيّ المرصّع بالزّمرّد. وكان الملك قد أضاع الخاتم خلال إحدى رحلاته البحريّة.

عزم ابن الصّيّاد على إيجاد الخاتم، وغاص في البحر طوال عدّة أيّام. غير أنّ البحر كان شاسعًا عميقًا، بينما الخاتم صغير، فكاد يستسلم للفشل لولا أن اقترح عليه والده أمرًا فقال :

— يجدر بك طلب المساعدة من الدّلفين.

فعل الشّابّ ذلك، وسرعان ما عثر الدّلفين على الخاتم وسلّمه إيّاه قائلًا :

— ها هو الخاتم.

في الغد، ارتدى الشابّ أجمل ثيابه وتوجّه إلى القصر الملكيّ. لم يصدّق الملك عينيه، ونظر مطوّلًا إلى الخاتم بعين فاحصة إلى أن اقتنع أخيرًا بأنّه فعلًا خاتمه.

فقال للشّابّ :

— إنّ ما فعلتَه معجزة حقيقيّة ؛ وتستحقّ مكافأة عليه. سأمنحك صرّة مليئة بالقطع الذّهبيّة.

— يا جلالة الملك، لا أريد إلّا الزواج بابنتك. لقد وعدتَ بهذا لمن يحضر لك خاتمك.

— كيف أمكن لك أن تتصوّر بأنّني سأمنح يد ابنتي البكر لصيّاد حقير مثلك ؟ وحتّى تكون أهلًا لها فعلًا، عليك أن تجلب لي صندوقًا مليئًا بالأحجار الكريمة.

— سأبذل قصارى جهدي يا جلالة الملك.

علمت الأميرة من إحدى خادماتها أنّ خاطبًا قد جلب الخاتم الملكيّ ؛ فسارعت لرؤيته وهو يغادر القصر، فأعجبها ووقعت في حبّه فورًا.

عاد الشّابّ إلى مسكنه ذليلًا، وأخبر أهله :

— لقد طلب الملك أن أحضر له صندوقًا مليئًا بالأحجار الكريمة إن أردت الزّواج من ابنته.

قالت الأخت بنبرة احتجاج :

— إنّه الظّلم بعينه.

وقال الأب متحسّرًا :

— الصّيّادون أفقر من أن يتزوّجوا الأميرات.

قال الشّابّ :

— فقراء أم لا، لا يغيّر هذا في الأمر شيئًا. على الملك أن يوفي بوعده لأنّني أحضرت خاتمه كما طلب.

قالت الأخت ناصحة :

— اختر بنتًا من بنات الصّيّادين، فهناك من هنّ أجمل بكثير من الأميرة.

وفي الأخير اقترحت الأمّ :

— يجب عليك، ربّما، أن تطلب مساعدة الدّلفين.

— كيف يمكنه أن يجلب لي مثل هذا الكنز ؟

قال الأب :

— إن البحر يخفي الكثير من الكنوز الغارقة مع السّفن الّتي كانت تحملها، ولا أحد يعلم مكانها غير الحيوانات البحريّة.

في صباح اليوم الموالي، قصد الشّابّ الشّاطئ وطلب المساعدة من الدّلفين. وعلى الفور، غاص الدّلفين في الماء، وعاد بعد بضع ساعات حاملًا صندوقًا على ظهره ووضعه على الرّمال. كان الصّندوق مُغطًّى بالطّحالب اللّزجة، ومُحكَم الإغلاق بقفل ضخم.

شكر الشّابّ الدّلفين، وجعل يفرك الصّندوق بالرّمل كي ينظّفه، ثمّ غسله وحمله إلى بيته، وهناك كسر القفل. كان يحوي أحجارًا كريمة ليس لها مثيل إلّا في خزائن أميرات ألف ليلة وليلة. وحينما رأى والدا الشّابّ وشقيقته كلّ تلك الثّروة، حاولوا ثنيه عن تقديمها للملك، فترجّته الأم قائلةً :

— احتفظ بهذا الكنز يا بنيّ، ولن نقع في الفقر بعد ذلك أبدًا.

رفض الشّابّ الإصغاء لكلامها، وحمل الصّندوق إلى القصر الملكيّ. وهناك، رفع الملك غطاءه، فعقدت الدّهشة لسانه إعجابًا بما رأى. تمالك نفسه وحدّق في الخاطب بنظرة ارتياب، ثمّ قال :

— من أين لك بهذا الكنز ؟

قال الصّيّاد الشّابّ :

— من البحر.

— مستحيل، لا بدّ أنّك سرقته.

— لا أبدًا يا جلالة الملك، لقد حصلت عليه من البحر.

أشار الملك إلى حرّاسه فأخذوا الخاطب وزجّوا به في السّجن. وعندما تأخّرت عودة الابن إلى البيت، ذهب الصّيّاد العجوز إلى القصر، فعلم بأنّ ابنه في السّجن بتهمة سرقة كنز.

عاد الأب المسكين حزينًا إلى منزله، وقصّ على زوجته وابنته ما جرى ؛ فشرعت الأمّ في النّحيب بينما الأب يواسيها. وانتهزت البنت الفرصة للانسلال خارج البيت خِفيةً، وذهبت إلى الشّاطئ حيث نادت :

— أيّها الدّلفين، أيّها الدّلفين، هلمّ إلى مساعدتنا !

لم يتأخّر الدّلفين في البروز، وقال :

— ماذا جرى ؟

— زجّ الملك بأخي في السّجن. ساعدنا أرجوك. سأفعل من أجلك أيّ شيء في مقابل ذلك.

سأل الدلفين :

— وهل ستقبلين الزّواج بي ؟

أجابت الفتاة :

— أجل، فأنت مخلوق كريم.

— ستكونين في مملكتي أكثر سعادةً ممّا أنت عليه في الأرض. ولكن، لنتدبّر أوّلًا أمر أخيك. أعلم أن الملك يخرج

كل شهر في نزهة بحريّة، وسأكلّمه بشأنه خلال خرجته القادمة.

— شكرًا.

بعد مرور بضعة أيّام، خرج الملك في نزهته، ولم يكد يبتعد قليلًا عن الميناء حتّى تلبّدت السّماء وهبّت الرّياح وارتفعت الأمواج ؛ فقال ربّان السّفينة للملك :

— يا جلالة الملك، هناك عاصفةٌ وشيكة. قد يكون من دواعي الحذر لو عدنا إلى اليابسة.

ردّ الملك :

— لا شيء نخشاه، فلنكمل نزهتنا.

وإن هي إلّا لحظات حتّى اشتدّ هيجان العاصفة وتلاطمت الأمواج، فاجتاحت موجةٌ هائلة سطح السفينة وحملت الملك مُلقيةً إيّاه في غياهب البحر.

اعتقد الملك نفسه ميّتًا لولا أنّه أحسّ بشيء يحمله إلى السّطح. وما إن صعد إلى الهواء الطّلق حتّى تنفّس بعمق واستعاد كامل وعيه، فلاحظ أنه يجلس على ظهر دلفين.

هدأت العاصفة. وعادت السّماءُ زرقاءَ بعد أن كانت، قبل لحظات، صفحةً قاتمةً كالفحم يرسم عليها البرق خطوطًا بيضاء.

قال الدّلفين :

— أيّها الملك، لقد أخلفت وعدك عندما رفضت مرّتين تزويج ابنتك البكر للصّيّاد الشّابّ، بل إنّك لم تتردّد في الزّجّ به في السّجن. وقد قرّرتُ أن أنقذك من الغرق وإيصالك إلى الشّاطئ شرط أن تفي بالتزاماتك السّابقة.

لم يكن بِيَدِ الملك خيار غير القبول، فقال بتلعثم :

— أوافق على زواجه من ابنتي.

انطلق الدّلفين على جناح السّرعة حتّى بلغ اليابسة، وهناك وضع الملكَ الّذي كان يرتعش وقد غمره البلل. واضطرّ الملك إلى العودة إلى قصره سيرًا على الأقدام. لقد كان في حال يرثى لها، حتّى أنّ الحرس على بوّابة القصر وجدوا صعوبة في التّعرّف عليه.

بعد بضعة أسابيع، أقيم زفافان في نفس اليوم : زفاف الصّيّاد الشّابّ مع الأميرة، وزفاف شقيقة الشّابّ مع الدّلفين. وقد تمّت مراسيم الأوّل في كنيسة العاصمة واحتُفل به ببذخ حيث دامت الأفراح سبعة أيّام بلياليها. أمّا الثّاني فقد تمّ في كتمان، إذ حمل الدّلفين الفتاة على ظهره وغاص بها في الماء. وما كادت مياه البحر المتوسّط الزّرقاء تغمرهما حتّى تحوّلت الأخت إلى أنثى دلفينٍ جميلة. ثمّ صعدا

سويًّا إلى السّطح وسبحا جنبًا إلى جنب نحو عرض البحر. وبعدها، غاصا ثانيةً إلى قعره. كانت المياه تزداد ظلمةً كلّما ازدادت عمقًا، إلى أن بلغا مدينةً تحت الماء تعجّ أزقّتها بالسّمك. كانت الحيوانات البحريّة جميعها تنحني لهما حين مرورهما، وبدّد الدّلفين دهشة زوجته حينما أخبرها بأنّه الملك، وأدركت أنّها، بزواجها منه، صارت الملكة. ثمّ دخلا إلى قصرٍ وثيرِ الأثاثِ جُدرانه مُزيّنة بالأصداف اللّؤلئيّة والمرجان. فقال الدّلفين :

— آمل أن قصري قد أعجبك.

ابتسمت الزّوجة وعانقته.

عاش الزّوجان مع زوجتيهما حياةً هانئة ؛ عروسان في قصرهما البرّيّ، والآخران في قصرهما البحريّ. وكانت زوجة الدّلفين تستعيد هيئتها البشريّة بشكل منتظم لتزور أخاها أو والديها. أمّا الوالدان فينعمان حاليًا بالسّعادة في بيت فخم جاءهما هديّةً من ابنيهما.

فهرس

تمهيد 5

الأميرتان (المغرب) 9

جحا و البحر (الجزائر) 17

في البحر الأبيض المتوسّط (تونس) 20

الصّيّاد والعملاق (مالطا) 23

الصّيّاد والقرد (ليبيا) 28

رحلة أونامون (مصر القديمة) 38

التّوأمان (مصر) 44

الأمير الّذي أراد مملكة (فلسطين) 50

إليسا (فينيقيا) 62

الأشقّاء الثّلاثة (لبنان) 67

السّمكة السّوداء الصّغيرة (قبرص) 74

أحسنت ! (سوريا).. 79

ابن الصّيّاد (تركيا)... 86

الإسكندر الأكبر (اليونان القديمة) 95

الثّعلب والحمار والذّئب (اليونان)............................ 99

الأمير والدّمية (جزيرة كريت)................................ 105

البحّارة التّيرانيّون (روما القديمة)........................ 111

الميّت الشّاكر للجميل (إيطاليا) 117

أَكَلَةُ الكلمات (قبرص) 126

الطّفل وسمكة السّلّور (جزيرة سردينيا)................ 131

الصّيّادون الثّلاثة (فرنسا) 137

الطّفل والشّيطان (جزيرة كورسيكا) 140

الحذاء والقبّعة (إسبانيا).. 147

الدّلفين الكريم (جزر البليار) 161

أنجز طبعه في أفريل 2019

على مطابع ع. قرفي - باتنــة - الجزائر